دلائل نبوة محمد ﷺ في القرآن الكريم

إعـــداد

د. محمد بن سريع بن عبدالله السريع

د. محمد بن سريع بن عبدالله السريع

- أستاذ مشارك بقسم القرآن وعلومه بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية.
- رئيس مجلس إدارة الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه
- حصل على درجة الماجستير فى القرآن وعلومه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته: (تفسير أئمة الدعوة فى نجد إلى بداية القرن الرابع عشر الهجرى -جمع ودراسة)
- حصل على درجة الدكتوراه فى القرآن وعلومه من جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية بأطروحته (غاية الأمانى في تفسير الكلام الرباني لأحمد بن إسماعيل الكورانى من أول سورة الأنفال إلى آخر سورة إبراهيم -دراسة وتحقيق)

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد/

فلقد أنزل الله تعالى كتابه الكريم حجة قائمة، وشريعة باقية، هو الحبل المتين،والصراط المستقيم، والمحجة البيضاء، فيه الهدى من الضلالة، والشفاء لكل علة، والدواء لكل داء .

لم يدع شيئا يحتاج إليه المكلفون إلا وفي القرآن بيان له: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

[النحل:٨٩] .

وأعظم ما جاء القرآن ببيانه أصول الدين وأركان الإيمان ومعاقد الملة؛ كإثبات الوحدانية وإفراد الله بالعبادة وإثبات ماله تعالى من الأسماء الحسنى والصفات العلى، وتقرير المعاد ونحو ذلك إذ هي المقصد الأعظم من نزول القرآن والمراد الأول من إيحائه .

هذا وإن من أجل مقاصد القرآن إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وتقرير رسالته، والاحتجاج لذلك بالبراهين العقلية والحجج اليقينية، وقد ساق القرآن الكريم العديد من الدلائل التي تثبت ذلك وتشهد له .

ولقد أحببت أن أتناول بالبحث هذا الموضوع:(**دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم**)[1] .

(١) استفدت فكرة هذا البحث من كلام الشيخ السعدي –رحمه الله- في كتاب القواعد الحسان في تفسير القرآن، فقد جعل القاعدة السابعة في طريقة القرآن في تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.
أقول هذا راجيا بركة ما أكتب وقبوله.
والحق أن هذا الكتاب العظيم على صغر حجمه عظيم النفع غزير الفائدة، كل قاعدة منه تستحق أن تفرد ببحث مستقل؛ بل ربما بحوث.
وليت الجادين من طلاب الدراسات العليا ينفرون لما أودعه رحمه الله في هذا الكتاب فيستخرجون كنوزه والله الموفق.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١- صلته بكتاب الله تعالى .

٢- صلته بأصل عظيم من أصول الدين، وركن من أركانه؛ وهو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " وبالجملة فتقرير النبوات من القرآن أعظم من أن يشرح في هذا المقام؛ إذ ذلك هو عماد الدين، وأصل الدعوة النبوية، وينبوع كل خير، وجماع كل هدى " .[١] أهـ

٣- أن الشبه التي ساقها منكرو النبوة، والأباطيل التي رددوها جاء القرآن بردها ودحضها بأقوى الحجج وأبلغ الأدلة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : "ولا ريب أن منكري النبوات لهم شبه... وكل ذلك قد أجاب الله عنه في القرآن العظيم، وقرر ذلك بأبلغ تقرير".[٢] أهـ.

٤- قلة الدراسات القرآنية التي تناولت هذا الموضوع، وللأسف فإن بعض الباحثين - حتى في الدراسات القرآنية - انشغلوا بقضايا لا يتبعها عمل عن العناية بالأصول الشرعية الكبرى التي عليها مدار الملة والدين،ومنها تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أو محاولتهم تقريرها بطرق ليست كطريقة القرآن .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : "أكثر أهل الكلام مقصرون في

---

(١) شرح الأصفهانية (ص ١٥٤- ١٥٥).

(٢) المرجع السابق (ص ١٥٤).

حجج الاستدلال على تقرير ما يجب من التوحيد والنبوة تقصيراً كثيراً جداً."[١] .

٥- وإذا كان هناك من تطاول على مقام النبوة الكريم، ووصفه بما لا يليق فإن العلاج الصحيح لهذه القضية يكمن في دعوة هؤلاء إلى الحق، وبيان مكانة هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وصدق رسالته، وصحة ما جاء به ودعا إليه .

وأفضل الطرق لتقرير هذا الأصل، وأقصرها إلى تحقيق المقصود، هي طريقة القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فترسم هذه الطريقة، والسير على نهجها، وإبراز هداياتها، وتوضيح إرشاداتها هي الجادة الموصلة والطريق المستقيم الذي يغني عن غيره، ولا يغني غيره غناه.

"والقرآن قد بين من آيات نبوته وبراهين رسالته أنواعاً متعددة مع اشتمال كل نوع على عدد من الآيات والبراهين"[٢] .

(١) المرجع السابق (ص١٠٤).

(٢) الجواب الصحيح (٥/ ٣١٩).

أهداف البحث :

١- بيان الدلائل التي ساقها القرآن الكريم لتقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

٢- إظهار تنوع الدلائل التي تدل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم وصحة رسالته .

٣- إبراز منهج القرآن الكريم في الاستدلال على القضايا الكبرى .

خطة البحث :

انتظمت خطة البحث في مقدمة و فصلين وخاتمة وفهارس، على النحو التالي:

المقدمة: وبينت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره، وأهداف البحث، وخطته والمنهج في كتابته.

الفصل الأول: مقدمات بين يدي البحث .

المبحث الأول: القرآن الكريم بين للناس كل ما يحتاجون إليه .

المبحث الثاني: عظيم حاجة الخلق للنبوة .

الفصل الثاني: دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم .

المبحث الأول: بشارات الأنبياء السابقين عليهم السلام .

المبحث الثاني: ما يعرفه قومه من أحواله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة .

المبحث الثالث: أنه صلى الله عليه وسلم أمي لا يقرأ ولا يكتب .

المبحث الرابع: أنه صلى الله عليه وسلم لم يتصل بأحد من أهلالكتاب .

المبحث الخامس: إتيانه صلى الله عليه وسلم بمثل ما جاء به الأنبياء عليهم السلام من أصول الدين .

المبحث السادس: ما أظهر على يديه صلى الله عليه وسلم من المعجزات والدلائل الباهرات .

المبحث السابع: صدق القرآن وعجز الكفار عن معارضته .

المبحث الثامن: اشتمال القرآن على التوحيد، وما يصلح الخلق .

المبحث التاسع: نصره وتأييده وعصمته من الناس .

المبحث العاشر: دلالة القرآن على حسن خلقه صلى الله عليه وسلم ورفيع صفاته .

الخاتمة : وفيها أبرز ما توصلت إليه من نتائج .

فهرس المراجع .

منهج البحث:

أسلك في البحث المنهج الاستقرائي التحليلي، بحيث أقوم بجمع دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم من خلال القرآن - مسترشدا بكلام أهل العلم - ثم أتناول ما يجتمع لدي بالبحث والتحليل والاستدلال .

وسأسير في البحث على الخطوات التالية:

١ - عزوت الآيات القرآنية إلى سورها مبينا أرقامها .

٢- خرجت الأحاديث النبوية من كتب السنة، فإن كان الحديث في الصحيحين اكتفيت بتخريجه منهما، وإلا اجتهدت في تخريجه من كتب السنة مبينا درجته من خلال النقل عن أئمة هذا الشأن .

٣- خرجت الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين .

٤- لم أترجم للأعلام طلباً للاختصار .

٥- أخرت ذكر بيانات المراجع إلى فهرس المراجع .

والله أسأل أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الفصل الأول: مقدمات بين يدي البحث .

المبحث الأول: القرآن الكريم بيَّن للناس كل ما يحتاجون إليه.

أرسل الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل، وأنزل عليه كتابه القرآن خاتمة الشرائع والكتب، وأودع فيه كل ما بالخلق حاجة إليه في شؤون العاجل والآجل، مما لا يصح أمرهم ولا تستقيم حياتهم إلا به، وبين ما يحتاجون إليه أتم بيان، وأوضحه غاية الإيضاح .

ولعلي ألخص الكلام في هذا المبحث في النقاط التالية:

أولاً: جاء القرآن الكريم مبينا للناس كل ما يحتاجون إليه كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل:٨٩] .

قال ابن مسعود رضي الله عنه: " أنزل في هذا القرآن كل علم، وكل شيء قد بين لنا في القرآن "، ثم تلا هذه الآية .[١]

وقال مجاهد: " مما أحل وحرم عليهم " .[٢]

قال ابن كثير: "وقول ابن مسعود أعم وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كل حلال

(١) رواه الطبري (١٤/ ٣٣٤) . و انظر: الدر المنثور (٤/ ١٢٧)

(٢) رواه الطبري (الموضع السابق)

وحـرام، ومـا النـاس إليـه محتـاجون في أمـر دنيـاهم وديـنهم، ومعاشـهم ومعادهم". [٣]أهـ.

ثانيـاً: والقـرآن الكـريم تبيـان لكـل شيء مـن أمـور الملـة والـشريعة والعقيـدة، ومـصالح الـدين، والدلالـة عـلى الخلـق القـويم، وتنظـيم معـاش الناس ببيان الحلال والحرام، والمصالح والمفاسد، والإرشاد إلى أمثل المناهج في أصول الحياة وتنظيمها، والعلاقات بين الناس فيها .

وليس المقصود من ذلك الغوص في دقائق حياة البشر وبيان تفاصـيل شؤون الحياة، وأنواع الصناعات أو الحرف و نحو ذلـك، أو بيـان دقـائق مـا في الكون من الحقائق العلميـة والطبيعيـة، وإن كـان قـد يجري لـبعض ذلـك ذكر ولكنه ليس مقصودا لذاته فيبين على سبيل التفصيل فإن القـرآن لم يـأت لذلك، ومثل هذه القضايا التي لا يترتب عليها ضـلال ولا هـدى، ولا حـل ولا حرمة متروكة لعقول الناس وتجاربهم واجتهادهم .

يقول ابن عاشور: " و(كل شيء) يفيد العموم ؛ إلا أنه عمـوم عـرفي في دائـرة مـا لمثلـه تجـيء الأديـان والـشرائع: مـن إصـلاح النفـوس، وإكـمال الأخلاق، وتقويم المجتمع المدني، وتبيين الحقوق، وما تتوقف عليـه الـدعوة من الاستدلال على الوحدانية، وصدق الرسول صلى الله عليـه وسـلم، ومـا يأتي في خلال ذلك من الحقائق العلمية والدقائق الكونيـة، ووصـف أحـوال الأمم، وأسباب فلاحها وخسارها، والموعظة بآثارها بشواهد التـاريخ، ومـا

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٥١٣)

يتخلل ذلك من قوانينهم وحضاراتهم وصنائعهم .

وفي خلال ذلك أسرار ونكت من أصول العلوم والمعارف صالحة لأن تكون بيانا لكل شيء على وجه العموم الحقيقي إن سلك في بيانها طريق التفصيل واستنير فيها بما شرح الرسول صلى الله عليه وسلم وما قفاه به أصحابه وعلماء أمته، ثم ما يعود إلى الترغيب والترهيب من وصف ما أعد للطائعين وما أعد للمعرضين، ووصف علم الغيب والحياة الآخرة .

ففي كل ذلك بيان لكل شيء يقصد بيانه للتبصير في هذا الغرض الجليل،فيؤول ذلك العموم العرفي بصريحه إلى عموم حقيقي بضمنه ولوازمه . وهذا من أبدع الإعجاز" [1].

ثالثاً: والقرآن الكريم قد بين القضايا الكبار كالتوحيد والإلهية والأسماء والصفات، والرسالة وإثبات البعث وأصول الأخلاق أتم بيان، وجلّاها بأحسن الحجج، فأعاد فيها وأبدى، وأوضحها بالشواهد والدلائل، والبراهين العقلية، والمشاهدات الحسية ؛ إذ هي المقصود الأعظم من إنزال الكتاب، والمراد الأهم من بعث الرسول صلى الله عليه وسلم،

وفي القرآن من الأدلة والبراهين والحجج العقلية على هذه القضايا ما لا يحتاج معه إلى غيره، وإن كان بعض الناس لم يعرفها لانشغاله بغيرها أو غفلته عنها .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " دلالة الكتاب والسنة على أصول

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٥٣)

الدين ليست بمجرد الخبر ؛كما تظنه طائفة من الغالطين من أهل الكلام والحديث والفقهاء والصوفية وغيرهم، بل الكتاب والسنة دلا الخلق وهدياهم إلى الآيات والبراهين والأدلة المبينة لأصول الدين، وهؤلاء الغالطون الذين أعرضوا عما في القرآن من الدلائل العقلية والبراهين اليقينية صاروا إذا صنفوا في أصول الدين أحزابا:

حزب: يقدمون في كتبهم الكلام في النظر والدليل والعلم، وأن النظر يوجب العلم وأنه واجب ... ثم إذا صاروا إلى ما هو الأصل والدليل للدين ... استدلوا بدليل مبتدع في الشرع وباطل في العقل .

والحزب الثاني: عرفوا أن هذا الكلام مبتدع، فصنفوا كتبا قدموا فيها ما يدل على وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة والحديث وكلام السلف ولكنهم قد يخلطون الآثار صحيحها بضعيفها .

وأيضا فهم إنما يستدلون بالقرآن من جهة أخباره لا من جهة دلالته، فلا يذكرون ما فيه من الأدلة على إثبات الربوبية والوحدانية والنبوة والمعاد وأنه قد بين الأدلة العقلية الدالة على ذلك .

وحزب ثالث: قد عرف تفريط هؤلاء وتعدي أولئك وبدعتهم، فذمهم وذم طالب العلم الذكي الذي اشتاقت نفسه إلى معرفة الأدلة والخروج عن التقليد إذا سلك طريقهم، وقال: إن طريقهم ضارة، وإن السلف لم يسلكوها . وهذا كلام صحيح، لكنه إنما يدل على أمر مجمل لا تتبين دلالته على المطلوب، ولا يفتح أبواب الأدلة التي ذكرها الله في القرآن التي تبين أن ما جاء به الرسول حق، ويخرج الذكي بمعرفتها عن التقليد

وعن الضلال وعن البدعة والجهل .

فهؤلاء لم يتدبروا القرآن وأعرضوا عن آيات الله التي بينها في كتابه .

والمقصود أن هؤلاء الغالطين الذين أعرضوا عما في القرآن من الدلائل العقلية والبراهين اليقينية لا يذكرون النظر والدليل والعلم الذي جاء به الرسول، والقرآن مملوء من ذلك، والمتكلمون يعترفون بأن في القرآن من الأدلة العقلية الدالة على أصول الدين ما فيه لكنهم يسلكون طرقا أخرى "(١) . أهـ مختصراً.

وهو كلام نفيس، لولا خشية الإطالة لسقته كاملا، يستفاد منه في ترشيد الدرس العلمي، وتقويم مسيرة البحث فيه، وبيان الأولويات التي يجب أن يعتنى بها .(٢)

رابعاً: ومن القضايا التي جلاها القرآن وأوضح دلائلها :نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فقد ساق عليها من الدلائل والبراهين العقلية، والحجج والبراهين والشواهد العقلية ما يعلم به كل منصف أنه رسول الله حقاً ونبي الله صدقا،

" فتقرير النبوات من القرآن هو عماد الدين، وأصل الدعوة النبوية،

---

(١) الفتاوى (١٩/ ١٦٠-١٦٣)

(٢) والعجب من بعض الباحثين الذين اقتطعوا جزءاً كبيرا من أعمارهم وأعمالهم في مسائل علمية، لا يترتب عليها عمل، ولا ينبني عليها صحة اعتقاد، ولا تعود بالنفع على الأمة ولا أجيالها ولا مسيرتها العلمية والدعوية، في وقت تغفل كثير من المسائل الأصول والقضايا الهامة دون بحث ولا تجلية ، وقد أدى الإعراض عن هذه المباحث القرآنية إلى نتائج علمية غير محمودة.

وينبوع كل خير، وجماع كل هدى " [٣] .

يقول الشيخ السعدي في طريقة القرآن في تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم: " هذا الأصل الكبير قرره الله في كتابه بالطرق المتنوعة التي يعرف بها كمال صدقه صلى الله عليه وسلم " . [١] أهـ.

خامساً: ومما يحسن الإشارة إليه أن الحجج والبراهين التي يسوقها القرآن لتقرير أصول الدين مع قطعيتها ويقينيتها سهلة التناول، قريبة الفهم، مباشرة الدلالة، عميقة الاستدلال، يفهمها كل مكلف، ويذعن لها كل عاقل .

وهذا بخلاف كثير من الحجج التي يسوقها الفلاسفة والمتكلمون فبالإضافة إلى كون بعضها غير دالٍ على المقصود أصلاً، إما لعدم صحته في نفسه أو لعدم صحته في الدلالة على المسألة المعينة، فإنها عسيرة الفهم، صعبة الإدراك. فهي كلحم جملٍ غثٍ على جبلٍ وعرٍ، لا سهلٍ فيرتقى ولا سمينٍ فينتقل .

والناس كلما اشتدت حاجتهم لأمر يسر الله أسباب الوصول إليه، "كما يتيسر ما كانت حاجتهم إليه في أبدانهم أشد، فلما كانت حاجتهم إلى النفس والهواء أعظم منها إلى الماء كان مبذولا لكل أحد في كل وقت، ولما كانت حاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى القوت كان وجود الماء أكثر .

---

(٣) شرح الأصفهانية (١٥٤- ١٥٥) مختصرا .

(١) القواعد الحسان (ص ١٩)

وكذلك لما كانت حاجتهم إلى معرفة الخالق أعظم، كانت آياته ودلائل ربوبيته وقدرته وعلمه ومشيئته وحكمته أعظم من غيرها، ولما كانت حاجتهم إلى معرفة صدق الرسل – بعد ذلك – أعظم من حاجتهم إلى غير ذلك أقام الله سبحانه من دلائل صدقهم وشواهد نبوتهم، وحسن حال من اتبعهم ، وسعادته ونجاته، وبيان ما يحصل له من العلم النافع والعمل الصالح، وقبح حال من خالفهم وشقاوتهم وجهله وظلمه، ما يظهر لمن تدبر ذلك"[٢] .

سادساً: أعود فأقول : إن القرآن حين بين للناس كل ما يحتاجون إليه، جاءهم فيه بأحسن طريق، وأقوم تنظيم لا يمكن أن تهتدي عقولهم إلى ما هو أحسن ولا أعظم منه ذلك أنه تنزيل الحكيم الحميد، الذي يعلم خلقه ويعلم ما يُصلحهم وما يصلح لهم : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤] .

ولذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

فالشريعة التي جاء بها القرآن لا يمكن أن يكون هناك ما هو أهدى منها.[١]

سابعاً: إن الله تعالى لم يحوجنا إلى غير القرآن وما جاء به محمد صلى الله

---

(٢) الجواب الصحيح (٥/ ١٤١) وانظر: (٥/ ٤٣٥-٤٣٦)

(١) انظر: أضواء البيان . فقد تكلم الشيخ الشنقيطي – رحمه الله – في تفسير هذه الآية بكلام جيد متين .

عليه وسلم في معرفة الحق والإيمان به، فهو كافٍ في بيان العلم النافع والعمل الصالح، يقول سبحانه: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [العنكبوت:٥١] فهو كاف في بيان الحق والدعوة إليه، ولا يحتاج معه المسلم إلى غيره حتى ولو كانت الكتب السابقة، فعن جابر رضي الله عنه أن عمر رضي الله عنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه النبي صلى الله عليه وسلم فغضب، فقال: " أمتهوكون[٢] فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها نقية ... والذي نفسي بيده لو أن موسى صلى الله عليه وسلم كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني "[٣].

---

(٢) قال أبو عبيد: " يقول: أمتحيرون أنتم في الإسلام لا تعرفون دينكم حتى تأخذوه من اليهود والنصارى ." أهـ غريب الحديث لأبي عبيد (١/ ٣٩٠)
وانظر: غريب الحديث لابن الجوزي (٢/ ٥٠٤)

(٣) رواه الإمام أحمد (٣/ ٣٨٧)، والدارمي (١/ ١١٥)، وابن أبي عاصم في السنة (٥/ ٢) .
والحديث جيد .
انظر: فتح الباري (١٣/ ٢٨٤)، إرواء الغليل (٦/ ٣٤)

المبحث الثاني: عظيم حاجة الخلق إلى النبوة.

حاجة الخلق إلى النبوة فوق كل حاجة، وضرورتهم إليها تفوق كل ضرورة، وكل أمر يمكن أن يتصور فقده إلا الاهتداء بنور الرسالة؛ إذ بفقدها خراب الدنيا والآخرة، وكل شر وبلاء في الدنيا أو الآخرة فإنما سببه الإعراض عن الرسالة وترك اتباع الرسل عليهم السلام.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " والرسالة ضرورية للعباد، لابد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة؛ وهو من الأموات، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢] فهذا وصف المؤمن كان ميتا في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نورا يمشي به في الناس، وأما الكافر فميت القلب في الظلمات.

وسمى الله تعالى رسالته روحا، والروح إذا عدم فقد فقدت الحياة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطب ؛ فإن آخر ما يقدر بعدم الطبيب موت الأبدان، وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتا لا ترجى الحياة معه أبدا، أو شقي شقاوة لا سعادة معها أبدا، فلا فلاح إلا باتباع الرسول، فإن الله خص بالفلاح أتباعه المؤمنين وأنصاره، كما قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الأعراف:١٥٧]، أي: لا مفلح إلا هم .

والرسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا باتباع الرسالة، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة .

ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد، فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف مننه عليهم: أن أرسل إليهم رسله ؛ وأنزل عليهم كتبه ؛ وبين لهم الصراط المستقيم . ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم، بل أشر حالا منها .

وليست حاجة أهل الأرض إلى الرسول كحاجتهم إلى الشمس والقمر ؛ والرياح والمطر، ولا كحاجة الإنسان إلى حياته ؛ ولا كحاجة العين إلى ضوئها، والجسم إلى الطعام والشراب ؛ بل أعظم من ذلك وأشد حاجة من كل ما يقدر ويخطر بالبال، فالرسل وسائط بين الله وبين خلقه في أمره ونهيه، وهم السفراء بينه وبين عباده " .[١]

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٩/ ٩٣-١٠١) مختصراً .

ويقول ابن القيم: " لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا، ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضى الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاؤوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير، وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك، وصار كالحوت إذا فارق الماء، ووضع في المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل، كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يحس بهذا إلا قلب حي "[٢].

(٢) زاد المعاد (١/ ٦٩)

الفصل الثاني:
دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم :

المبحث الأول : بشارات الأنبياء السابقين عليهم السلام .

لقد قرر القرآن الكريم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بما ثبت عند الأنبياء السابقين عليهم السلام من البشارة به صلى الله عليه وسلم والإخبار عن مبعثه، كما قال تعالى عن عيسى عليه السلام : (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾) [الصف:٦] .

يقول صلى الله عليه وسلم : " أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام " (١).

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن لي أسماء أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة، وقال ابن كثير : "إسناده جيد، وله شواهد من وجوه أخرى" أ.هـ تفسير ابن كثير (٨/ ١٣٦) .

قلت : وله شاهد من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه عند الإمام أحمد (٤/ ١٢٧) وابن حبان (٨/ ١٠٦) والبيهقي في الدلائل (١/ ٨٠)، والحاكم (٢/ ٤١٨) وصححه ووافقه الذهبي.

يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب" [١] .

وجاء في الآية بلفظ التبشير، وهو الإخبار بالأمر السار ؛ لأن إخبارهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم أمرُ خيرٍ يُسر به المؤمنون، ويعود عليهم بالنفع في الدنيا والآخرة .

والإتيان بقوله ﴿مِنۢ بَعۡدِى﴾ بعد قوله : ﴿يَأۡتِى﴾ إشارة _ والله أعلم _ إلى تراخي مبعثه صلى الله عليه وسلم عن مبعث عيسى، وقد كان الأنبياء من بني إسرائيل ربما بعث الواحد في حياة الآخر .

وقوله تعالى : ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ " يحتمل معنيين، أحدهما : المبالغة في الفاعل، يعني أنه أكثر حمداً له من غيره . وثانيهما : المبالغة في المفعول، يعني أنه يُحمد بما فيه من الإخلاص والأخلاق الحسنة أكثر مما يحمد غيره " [٢].

ويقول سبحانه : (وَرَحۡمَتِى وَسِعَتۡ كُلَّ شَىۡءٍۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلۡأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِى ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾)

(١) رواه البخاري، تفسير سورة الصف (٤٨٩٦)، ومسلم كتاب الفضائل، باب في أسمائه صلى اللهعليه وسلم (٦١٠٦).

(٢) التفسير الكبير (٢٩/ ٢٧٢)

[الأعراف:١٥٦-١٥٧] .

في هذه الآية إجابة الله تعالى دعاء نبيه موسى عليه السلام، وذكر أنه كتب رحمته للمؤمنين الذين يتبعون الرسول الأمي الذي أخبرت عنه التوراة والإنجيل وبشرت به.

ووصفه في البشارة بالنبي الأمي وصف لا يلتبس بغيره من أنبياء بني إسرائيل، لأنهم لم يكونوا أميين، وإنما اشتهر هو صلى الله عليه وسلم بهذا الوصف، فهو أمي من أمة أمية .

ثم ذكر تعالى أنه مكتوب في التوراة والإنجيل بهذه الأوصاف التي ذكرت في الآية، وهي: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾.

فجملة ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ بيان للمكتوب عندهم [(١)] .

ويقول جل في علاه : ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ [الفتح:٢٩].

(١) انظر التحرير والتنوير (٩/ ١٣٤)

فهذه صفة محمد صلى الله عليه وسلم وصفة أصحابه رضي الله عنهم المذكورة في التوراة والإنجيل قصها الله تعالى علينا في كتابه .

وقد ذكر الله تعالى في غير موضع أن أهل الكتاب يعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم و يعلمون صدقه ونبوته بما عندهم من العلامات والأمارات التي أخبرتهم بها رسلهم عليهم السلام .

يقول تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].

وقال سبحانه : ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:٢٠] .

فأخبر تعالى أنهم يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم وصدقه وصحة شريعته معرفة لا لبس فيها كمعرفة الأب لابنه، وهذه المعرفة إنما وصلت إليهم عن طريق أنبيائهم عليهم السلام[١] .

ويقول سبحانه : ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠١].ويقول سبحانه : ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ [البقرة:٤١] .

قال أبو العالية : " يقول : يا معشر أهل الكتاب أمنوا بما أنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم مصدقا لما معكم، يقول : لأنهم يجدون محمداً

(١) انظر المرجع السابق (٢/ ٣٩)

صلى الله عليه وسلم مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل " [(١)].

ويقول الطبري: "يعني بقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أن القرآن مصدق لما مع اليهود من بني إسرائيل من التوراة، فأوهم بالتصديق بالقرآن وأخبرهم أن في تصديقهم بالقرآن تصديقًا منهم للتوراة؛ لأن الذي في القرآن من الأمر بالإقرار بنبوة محمد ﷺ وتصديقه واتباعه نظير الذي من ذلك في التوراة والإنجيل، ففي تصديقهم بما أُنزل على محمد ﷺ تصديق منهم لما معهم من التوراة، وفي تكذيبهم به تكذيب منهم لما معهم من التوراة". أ.هـ [(٢)].

يقول السعدي : " ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ هو القرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فأمرهم بالإيمان به واتباعه، ويستلزم ذلك الإيمان بمن أنزل عليه. وذكر الداعي إلى إيمانهم فقال : ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي : موافقا له لا مخالفا ولا مناقضا ...وأيضا فإن في الكتب التي بأيديكم صفة هذا النبي الذي جاء بهذا القرآن والبشارة به، فإن لم تؤمنوا به كذبتم ببعض ما أنزل إليكم ... الخ" [(٣)].

ويقول سبحانه : (وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ

(١) أخرجه ابن جرير (١/ ٦٠٠) قال ابن كثير : " وروي عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة نحو ذلك ". أهـ (١/ ١١٩) وانظر : التفسير الكبير (٣/ ٣٨ ، ١٨٣)

(٢) تفسير الطبري (١/ ٥٩٩).

(٣) تفسير السعدي (ص ٣٣)

كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٨٩].

عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل بعثته، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن معرور، أخو بني سلمة : يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله في ذلك من قولهم : ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[1].

لقد قص القرآن الكريم في العديد من المواضع علم أهل الكتابين بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وصدق دعوته وصحة رسالته وصحة القرآن الذي جاء به، وأعاد هذه القضية من وجوه متعددة كما قال سبحانه : ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء:١٩٧].

وهذه الآية في سورة الشعراء وهي مكية سيقت للاحتجاج على المشركين عبدة الأوثان في صحة القرآن وصحة ما جاء به وأنه من عند الله، يقول تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير (١/ ١٧٨)

قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٧].

فإذا علم علماء بني إسرائيل صحة القرآن من خلال ما عندهم من كتبهم وأخبار أنبيائهم علموا صدق من جاء به صلى الله عليه وسلم وصحة ما دعا إليه .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : "﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧] وعلماء بني إسرائيل يعلمون ذكر إرسال محمد، ونزول الوحي عليه، كما قال تعالى : ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] وقال : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [الأنعام:١١٤].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ [القصص:٥٢] .

وقال : ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص:٥٣] .

ويعلمون المعاني التي فيه أنها موافقة لأقوال الرسل قبله في الخبر والأمر .

فإنه أخبر عن توحيد الله وصفاته وعرشه وملائكته وخلقه السماوات والأرض وغير ذلك بمثل ما أخبرت به الرسل قبله . وأمر بتوحيد الله

وعبادته وحده لا شريك لـه، وبالعدل والصدق والصلاة والزكاة، ونهى عن الشرك والظلم والفواحش ؛ كما أمرت ونهت الرسل قبله "[١].

ويقـول سبحانه : ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الرعد:٤].

فلما حكى الله تعالى تكذيب الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يخبرهم بشهادة الله تعالى له بالرسالة وشهادة من عنده علم الكتاب، وهم علماء أهل الكتاب[٢].

يقول الحافظ ابن كثير : " والصحيح في هذا أن ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته في كتبهم "[٣]. أهـ .

ويقول السعدي : " وهذا شامل لكل علماء الكتابين، فإنهم يشهد منهم للرسول من آمن واتبع الحق، فصرح بتلك الشهادة التي عليه، ومن كتم ذلك فإخبار الله عنه أن عنده شهادة أبلغ من خبره، ولو لم يكن عنده شهادة لرد استشهاده بالبرهان، فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة .

---

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٣٤٠) وانظر التفسير الكبير (٢٤/ ١٤٥)، تفسير السعدي (ص٥٤٧)، التحرير والتنوير(١٩/ ١٩١)

(٢) قال به قتادة ومجاهد وغيرهما . انظر : تفسير عبد الرزاق (١/ ٢/ ٣٣٩) تفسير ابن جرير (١٦/ ٥٠٣)

وقيل: هو الله عز وجل .

انظر أيضا : معاني القرآن للزجاج (٣/ ١٥١)، تفسير البغوي (٤/ ٣٢٨) .

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٩٤)، وبنحوه قال البغوي في تفسيره (الموضع السابق)

وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب لأنهم أهل هذا الشأن، وكل أمر إنما يستشهد فيه أهله، ومن هم أعلم به من غيرهم بخلاف من هو أجنبي عنه كالأميين من مشركي العرب وغيرهم، فلا فائدة من استشهادهم لعدم خبرتهم ومعرفتهم "[1]. أهـ.

وقد أخبر سبحانه وتعالى عن علم أهل الكتاب بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم وصحة ما جاء به وأنه منزل من عند الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام:١١٤].

يقول الحافظ ابن كثير: " ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: من اليهود والنصارى (يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) أي: بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين"[2]. أهـ.

ويقول تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٨٢-٨٣].

ويقول سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص (٣٧٥)

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٥)

﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [القصص:٥٢-٥٣] .

قال الرازي : " وذلك لما وجدوه في كتب الأنبياء عليهم السلام المتقدمين من البشارة بمقدمه " [١]. أهـ.

وإن هذه البشارات بنبوته صلى الله عليه وسلم الواردة عن الأنبياء السابقين عليهم السلام التي استدل بها القرآن وأخبر عنها لا يمكن لأحد إنكارها ولا جحودها، وقد ثبتت من عدة طرق، فمنها :

الأول : النصوص المتكاثرة الموجودة في كتب أهل الكتاب، التي فيها الدلالة على نبوته صلى الله عليه وسلم [٢].

الثاني : إخبار كثير من أهل الكتاب – الذين أسلموا والذين لم يسلموا- بهذه البشارات وأنها في محمد صلى الله عليه وسلم، كما ذكر ذلك هرقل عظيم الروم [٣]. والنجاشي ملك الحبشة [٤]. وغيرهما [٥].

وهي أخبار ليست ممن أسلم فقط – كما أسلفت – حتى يمكن

---

(١) التفسير الكبير(٢٤/ ٢٢٤)

(٢) انظر على سبيل المثال : الجواب الصحيح (٥/ ١٩٧)، هداية الحيارى ص (١١٥)، إظهارالحق (٤/ ١٠٧٨)

(٣) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، رقم (٧)، ومسلم كتاب الجهاد والسير باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل رقم (١٧٧٣)

(٤) يأتي تخريجه (ص ٢٩)

((٥ انظر : الجواب الصحيح (٥/ ١٦٠)

الطعن فيها، وإنما هي ممن لم يسلم أيضا ممن عرف الحق، وصده عن الدخول فيه جاه أو سلطان أو حسد أو غير ذلك.

الثالث : أنه صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك مرة بعد مرة، وتلاه على المشركين وأهل الكتاب مخبرا عنه ومستدلا به، ولو كان أمراً لا حقيقة له لكان هذا مغريا بتكذيبه والطعن في نبوته .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " فإنه لا ريب عند كل من عرف حال محمد –صلى الله عليه وسلم – من مؤمن وكافر، أنه كان أعقل أهل الأرض، فإن المكذبين له لا يشكون في أنه كان عنده من الخبرة والمعرفة والحذق ما أوجب أن يقيم مثل هذا الأمر العظيم، الذي لم يحصل لأحد مثله ؛ لا قبله ولا بعده، فعلم ضرورة أنه لا يفعله ولا يخبر به (بشارة الأنبياء السابقين به) وهو من أحرص الناس على تصديقه، وأخبرِهم بالطرق التي يُصَّدق بها، وأبعدهم عن أن يفعل ما يعلم أنه يكذب به .

فلو لم يعلم أنه مكتوب عندهم، بل علم انتفاء ذلك لامتنع أن يخبر بذلك مرة بعد مرة، ويستشهد به، ويظهر ذلك لموافقيه ومخالفيه، وأوليائه وأعدائه، فإن هذا لا يفعله إلا أقل الناس عقلا، لأن فيه إظهار كذبه عند من آمن به منهم ... وهو ضد مقصوده "[1] أهـ، يوضحه الوجه .

الرابع : أن المكذبين له صلى الله عليه وسلم والجاحدين لنبوته والمعادين له أشد عداوة لم يمكنهم إنكار البشارة ولا القدح فيها بوجه

((١ الجواب الصحيح (٥/ ١٨٦)

مقبول، ولم يدع أحد منهم أن هذا غير موجود في الكتب السابقة [١].

المبحث الثاني : ما يعرفه قومه من أحواله صلى الله عليه وسلم قبل النبوة .

نشأ النبي صلى الله عليه وسلم بين ظهراني قومه بمكة التي ولد فيها، وشب وترعرع يتيما فرعاه جده عبد المطلب إلى أن مات، ثم كفله أبو طالب فنشأ في حجره، وقد كان صلى الله عليه وسلم مخالطًا قومه، مشاركا لهم في كافة مناشط الحياة إلا ما كان من طقوس الشرك والوثنية، ومظاهر الانحراف كشرب الخمر والزنا، فإنه كان مجانباً لها، حائدا عنها، ملتزما سنن الفضيلة متحليا بمكارم الأخلاق .

ولقد أتاحت هذه المشاركة والخلطة - في الحضر والسفر- لقومه أن يعرفوه، ويعلموا ما هو عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن السجايا، فعرفوا عنه الأمانة والصدق، وحسن العهد والوفاء بالوعد، فكان نعم الصاحب والمصاحب، وكان محل الأمانة ومستودع الوفاء .

وقد كان صدقه وأمانته محل إجماع من قومه، ومكان اتفاق من عشيرته، لا يمارون في ذلك ولا يشكون فيه، فقد ائتمنته أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها واختارته قبل نبوته وقبل زواجه منها ليخرج في تجارتها لما بلغها عنه من الصدق والأمانة .

ولهذا استدلت رضي الله عنها بما تعلمه من حاله قبل النبوة على

---

(١) انظر : هداية الحيارى ص (١٠٥)

سلامته وصحة ما جاءه لما نزل عليه الوحي في غار حراء، فجاءها وهو خائف، وقال : " إني خشيت على نفسي " فقالت : " كلا والله لا يخزيك الله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق " .[1]

فاستدلت هذه اللبيبة العاقلة – رضي الله عنها وأرضاها – على صحة ما جاءه وما جاء به بما كانت تعرفه من أحواله قبل أن يأتيه الحق من السماء " فذكرت ما كان مجبولا عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والأعمال، وهو الصدق المستلزم للعدل والإحسان إلى الخلق، ومن جمع فيه الصدق والعدل والإحسان لم يكن مما يخزيه الله، وصلة الرحم وقرى الضيف وحمل الكل وإعطاء المعدوم والإعانة على نوائب الحق هي من أعظم أنواع البر والإحسان، وقد عُلم من سنة الله أن من جَبَلَه على الأخلاق المحمودة، ونزهه عن الأخلاق المذمومة فإنه لا يخزيه " [2].

ولما أراد قومه صلى الله عليه وسلم بناء الكعبة قبل الإسلام اختلفوا حين بلغوا موضع الحجر الأسود فيمن ينال شرف وضعه في مكانه حتى كادوا أن يقتتلوا، ثم رضوا بأن يحكموا أول داخل من باب البيت، فكان صلى الله عليه وسلم أول داخل فقالوا : " هذا الأمين، رضينا، هذا محمد"[3].

لقد لبث فيهم صلى الله عليه وسلم على هذا النحو أربعين سنة، لم

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٢) فتح الباري

(٢) شرح الأصفهانية ص (٩٣)

(٣) انظر : السيرة لابن هشام (١/ ٢٣٣ – ٢٣٤)

يأثروا عليه كذبا، ولم يعرفوا عنه غدرا، حتى إذا انقضت فترة شبابه وأقبل على الكهولة وسن الأشد أنزل الله عليه وحيه، وأمره بتبليغ الرسالة، فهل يعقل أن يلازم الصدق في طفولته وشبابه، ثم إذا أقبل على المشيب وبلغ أشده يقع في الكذب ويتحدث به ؟ .

وهل يعقل أن يدع الكذب على الناس حياته كلها، ثم يذهب ليكذب على الله تعالى ؟ هذا مما لا يُعرف في أحوال الناس وطبائعهم .

ولذا أخبر القرآن الكريم أنهم لا يكذبون محمدا صلى الله عليه وسلم ولا يقوون على ذلك، فإنهم لم يزالوا معترفين بصدقه وأنهم لم يجربوا عليه كذبًا ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام:٣٣] .

قال السدي: "التقى الأخفش وأبو جهل، فخلا الأخفش بأبي جهل فقال: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد: أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا من قريش غيري وغيرك يسمع كلامنا. فقال أبو جهل: ويحك! والله إن محمدًا لصادق، وما كذب قط، ولكن إذا ذهبت بنو قصي باللواء والسقاية والحجاب والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام:٣٣] فآبان الله محمد"[(١)] .

وذكر ابن إسحاق في السيرة عن الزهري في قصة أبي جهل حين

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (٤/ ١٢٨٣)، ورواه ابن جرير (٩/ ٢٢٢) مطولاً بعد قصة في أوله.

استمع إلى قراءة النبي ﷺ من الليل هو وأبو سفيان والأخفش بن شريق ... وفي آخره:

قال الأخفش لأبي جهل: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت عن محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف؛ أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء! فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه [(١)].

قال الطبري: "﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ بمعنى أنهم لا يكذبون رسول الله إلا عنادًا لا جهلاً بنبوته وصدق لهجته".أ.هـ. [(٢)].

وقال السعدي: "﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ لأنهم يعرفون صدقك، ومدخلك ومخرجك، وجميع أحوالك؛ حتى إنكهم كانوا يسمونه قبل بعثته الأمين"[(٣)].

وقال ابن عاشور: "والذي يستخلص من سياق الآية أن المراد: فإنهم لا يعتقدون أنك كاذب؛ لأن الرسول ﷺ معروف عندهم بالصدق، وكان يلقب بينهم بالأمين ... ولأن الآيات التي جاء بها لا يمتري أحد في أنها من عند الله، ولأن دلائل صدقه بينة واضحة ولكنكم ظالمون.أ.هـ.[(٤)].

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣١٥). وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٦).

(٢) تفسير الطبري (٩/ ٢٢٠)، وانظر: المحرر الوجيز (٢/ ٢٨٥)، التفسير الكبير (١٢/ ١٦٨).

(٣) تفسير السعدي (ص ٢١٧).

(٤) التحرير والتنوير (٧/ ١٩٩-٢٠٠).

ويقول سبحانه : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس:١٥-١٦] .

" فبين أنه لبث فيهم عمرا من قبله وهو لا يتلو شيئا من ذلك ولا يعلمه ولا يعلمهم به، فليس الأمر من جهته، ولكن من جهة الله الذي لو شاء ما تلاه عليهم ولا أدراهم به، وتلاوته عليهم وإدراؤهم به هو من الإعلام بالغيوب الذي لا يعلمها إلا نبي " [(١)].

" ومحمد صلى الله عليه وسلم ما زال قومه يعرفونه بينهم بالصادق الأمين، لم تجرب عليه كذبة واحدة، ولما جاءه الروح بالوحي لم يخبر بخبر واحد كذب لا عمدا ولا خطأ " [(٢)].

قا ابن كثير: "﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: هنا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته، والدليل على أني لست أتقوله من عندي ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي فقد نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل، لا تنتقدون عليّ شيئًا تغمصوني به ولهذا قال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٣٣٥)

(٢) المرجع السابق (٥/ ٣٥٦).

الباطل ولهذا ... قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته... الخ"[1] .

وقال القرطبي: "﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: من قبل القرآن تعرفونني بالصدق والأمانة، لا أقرأ ولا أكتب ثم جئتكم بالمعجزات ...

وقيل: معنى ﴿لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ أي: لبثت فيكم مدة شبابي لم أعص الله، أفتريدون مني الآن وقد بلغت أربعين سنة أن أخالف أمر الله، وأُغيّر ما ينزله عليّ"أ.هـ.[2] .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " قام النضر بن الحارث فقال : " يامعشر قريش والله لقد نزل بكم ما ابتليتم بمثله، لقد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر، لا والله ما هو بسحر ... الحديث " [3].

لقد كان صلى الله عليه وسلم " من أكمل الناس تربية ونشأة، لم يزل معروفا بالصدق والبر والعدل، ومكارم الأخلاق، وترك الفواحش والظلم، وكل وصف مذموم، مشهودا له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة، وممن آمن به وممن كفر بعد النبوة، لا يعرف له شيئا يعاب به لا في أقواله ولا في أفعاله ولا في أخلاقه ولا جرب عليه كذبة قط ولا ظلم ولا فاحشة " [4].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٩٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٣٢١).

(٣) رواه ابن إسحاق في السيرة . انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٢٠)

(٤) الجواب الصحيح (٥/ ٤٣٨)

وبهذا الأمر استدل العقلاء من أهل الكتاب وغيرهم على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم وصحة رسالته، كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما : أن أبا سفيان بن حرب رضي الله عنه حدثه قال : " انطلقت إلى الشام في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فبينما أنا بالشام إذ جيء بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، قال : وكان دحية الكلبي جاء به فدفعه إلى عظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل، فقال هرقل : هل هاهنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ قالوا : نعم، قال فدعيت في نفر من قريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه، فقال : أيكم أقرب نسبا إلى هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ قال أبو سفيان: فقلت أنا . فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي، فدعا بترجمانه، فقال : قل لهم : إني سائل عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذبني فكذبوه . قال : فقال : " و أيم الله ! لولا مخافة أن يؤثر علي كذب لكذبت عليه ... ثم سأله مسائل، ومنها : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقال أبو سفيان : لا ... وذكر الحديث وفيه : قال هرقل : وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

ثم قال في آخر الحديث : لئن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه " [1].

---

(١) سبق تخريجه .

وانظر كلامًا طويلاً في شرح الحديث، وبيان وجوه استدلال هرقل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الأمارات في شرح الأصفهانية (ص٩٣ وما بعدها) وقد سماه شيخ الإسلام : المسلك الشخصي .

المبحث الثالث : أنه صلى الله عليه وسلم أمي لا يقرأ ولا يكتب .

بعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وكان هذا من الدلائل التي ساقها القرآن الكريم لإثبات صدقه، وأنه رسول من عند الله، أوحى الله إليه، ولم يختلق شيئا مما جاء به .

يقول الله تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٨] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: "كان نبي الله أميًا لا يقرأ ولا يكتب"[١] .

قال البيضاوي: "إن ظهور هذا الكتاب الجامع لأنواع العلوم الشريفة من أمي لم يُعرف بالقراءة والتعلم خارق للعادة ...

﴿ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ أي: لو كنت ممن يخط ويقرأ لقالوا لعله تعلمه أو التقطه من كتب الأولين الأقدمين"[٢] .

وقال ابن كثير: "﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ ﴾ أي تقرأ ﴿ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ﴾ لتأكيد النفي ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ ﴾ تأكيد أيضًا، وخرج مخرج الغالب، كقوله: ﴿وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام: ٣٨] .

وقوله: ﴿ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ أي: لو كنت تحسنها لارتاب

(١) رواه عنهما ابن جرير (١٨/ ٤٢٥)، وابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٧١).

(٢) تفسير البيضاوي (٢/ ٢١١).

بعض الجهلة من الناس فيقول: إنما معكم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء". أ.هـ. [١] .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية :" بين سبحانه من حاله ما يعلمه العامة والخاصة، وهو معلوم لجميع قومه الذين شاهدوه، متواتر عند من غاب عنه وبلغته أخباره من جميع الناس: أنه كان أميا لا يقرأ كتابا، ولا يحفظ كتابا من الكتب، لا المنزلة ولا غيرها، ولا يقرأ شيئا مكتوبا، لا كتابا منزلا ولا غيره، ولا يكتب بيمينه كتابا ولا ينسخ شيئا من كتب الناس، المنزلة ولا غيرها، ومعلوم أن من يأخذ من غيره إما أن يأخذ تلقينا وحفظا، وإما أن يأخذ من كتابه، وهو لم يكن يقرأ شيئا من الكتب من حفظه، ولا يقرأ مكتوبا . والذي يأخذ من كتاب غيره إما أن يقرؤه، وإما أن ينسخه، وهو لم يكن يقرأ ولا ينسخ " [٢].

ويقول ابن عاشور : " هذا استدلال بصفة الأمية المعروف بها الرسول صلى الله عليه وسلم، ودلالتها على أنه موحى إليه من الله أعظم دلالة، وقد ورد الاستدلال بها في القرآن الكريم في مواضع كقوله : ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِى مَا ٱلۡكِتَـٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَـٰنُ﴾ [الشورى:٥٢] وقوله: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرًا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يونس:١٦] .

ومعنى ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ﴾ أنك لم تكن تقرأ كتابا

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٩٥).

(٢) الجواب الصحيح (٥/ ٣٣٨)

حتى يقول أحد : هذا القرآن الذي جاء به هو مما كان يتلوه من قبل... ووجه التلازم بين التلاوة والكتابة المتقدمين على نزول القرآن، وبين حصول الشك في نفوس المشركين أنه لو كان ذلك واقعا لاحتمل عندهم أن يكون القرآن من جنس ما كان يتلوه من قبل من كتب سالفة، وأن يكون مما خطه من قبل من كلام تلقاه فقام اليوم بنشره ويدعو به .

وإنما جعل ذلك موجب ريب دون أن يكون موجب جزم بالتكذيب لأن نظم القرآن وبلاغته وما احتوى عليه من المعاني يبطل أن يكون من نوع ما سبق من الكتب والقصص والخطب والشعر، ولكن ذلك لما كان مستدعيا تأملا لم يمنع من خطور خاطر الارتياب على الإجمال قبل إتمام النظر والتأمل بحيث يكون دوام الارتياب بهتانا ومكابرة ... ووصف المكذبين بالمبطلين منظور فيه لحالهم في الواقع لأنهم كذبوا مع انتفاء شبهة الكذب فكان تكذيبهم الآن باطلا، فهم مبطلون متوغلون في الباطل "[1].

وفي المراد بالمبطلين في الآية قولان:

الأول: المشركون؛ قريش وغيرهم، حيث يقولون: إنما تعلم هذا وقرأه من كتبٍ قبله.

الثاني: أهل الكتاب؛ لأنهم يجدونن نعته ﷺ في كتبهم أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ١١-١٠)

وانظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٢٩٤)

قال البيضاوي: "﴿ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ أي: لو كنت ممن يخط ويقرأ لقالوا لعله تعلمه أو التقطه من كتب الأولين الأقدمين، وإنما سماهم مبطلين لكفرهم أو لارتيابهم بانتفاء وبه واحد من وجوه الإعجاز المتكاثرة، وقيل لارتاب أهل الكتاب لوجدانهم نعتك على خلاف ما في كتبهم؛ فيكون إبطالهم باعتبار الواقع دون المقدر.أ.هـ. [(١)] .

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ .

قال الزجاج: " ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: لبثت فيكم من قبل أن يوحى إليَّ؛ إذ كنتم تعرفونني بينكم، نشأت لا أقرأ كتابًا، وإخباري إياكم أقاصيص الأولين من غير كتاب ولا تلقين يدل على أن ما أتيت به من عند الله وحيٌ"[(٢)] .

وقال ابن عاشور: "﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ تذكير لهم بقديم حاله المعروفة بينخم وهي حالة الأمية، أي قد كنت بين ظهرانكم مدة طويلة، وهي أربعون سنة، وتشاهدون أطوار نشأتي فلا ترون فيها حالة

---

(١) تفسير البيضاوي (٢/ ٢١١)، وانظر: تفسير الطبري (١٨/ ٤٢٦)، الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٣٩)، الكشاف (٤/ ٥٥٤).

(٢) معاني القرآن (٣/ ١١).

تشبه حالة العظمة والكمال المتناهي الذي صار إليه لما أوحى الله إليه بالرسالة ... الخ"[1] .

وقال السعدي: "﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ طويلاً، تعرفون حقيقة حالي بأني أمي لا أقرأ ولا أكتب ولا أدرس ولا أتعلم من أحد ... الخ"[2] .

والآية –فيما يظهر– احتجاج بعموم حاله ﷺ قبل النبوة على صدقه وصحة ما جاء به؛ فهي احتجاج بأميته التي تدل أنه لا يمكن أن يختلق ما جاء به ولا يقوى على ذلك لو أراده[3] ، واحتجاج بما كان عليه من الصدق والأمانة، واستقامة الحال، وحسن السيرة التي تدل على أنه لا يمكن أن يدع الكذب أول أمره حتى على الناس ثم يكذب آخر حياته على الله تعالى[4] ، واحتجاج –أيضاً– بمكثه الطويل أربعين سنة بين ظهرانيهم لا يدري ما الكتاب والإيمان ولم يخرج عليهم بشيء، ثم لم يفاجأهم إلا بهذا الكتاب يتلوه عليهم ويدعوهم إليه ولو شاء الله ما تلاه عليهم ولا أدراهم به.

فالآية على العموم استدلال بعموم حاله ﷺ على أنه صادق فيما جاء

---

(١) التحرير والتنوير (١١/ ١٢٠).

(٢) تفسير السعدي (ص ٣١٦). وانظر: تفسير البيضاوي (١/ ٤٣١)، روح المعاني (١١/ !٢٥).

(٣) قال البيضاوي: "قرأ عليهم كتابًا برزت فاصحته فصاحة كل منطق وعلا على كل منثور ومنظوم، واحتوى على قواعد علمي الأصول والفروع، وأعرب عن أقاصيص الأولين، وأحاديث الآخرين ... الخ" (الموضع السابق)، وراجع: المبحث السابع والثامن.

(٤) راجع ص ٢٧.

به، مرسل من عند الله جل وعلا [١] .

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ١٣٧)، المراجع السابقة.

المبحث الرابع : أنه صلى الله عليه وسلم لم يتصل بأهل الكتاب .

لقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم بما عجز الناس عن معارضته أو الإتيان بمثله، كما عجزوا عن القدح فيه، أو التماس العيوب له، فجاء القرآن الكريم الذي اشتمل على أنواع من دلائل نبوته وبراهين صدقه في العقائد والأحكام والشرائع التي لا يمكن أن يأتي بها إلا نبي أو من أخذ عن نبي .

كما أخبر بالعديد من القصص والغيوب الماضية ابتداء أو بعد سؤال المشركين وأهل الكتاب عنها ليمتحنوا صدقه فهي أخبار سبيلها الغيب فلا يعلمها إلا الأنبياء بالوحي من الله تعالى أو من تلقى عنهم .

ومن ذلك ما جاء به من قصة يوسف عليه السلام التي جاءت بكل تفاصيلها في سورة يوسف عليه السلام، وقال الله تعالى في خاتمتها: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف:١٠٢] إلى أن قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١٠٢-١١١]

وقال تعالى بعد ذكر زكريا وكفالة مريم، وذكر هبته الولد على الكبر واصطفاء مريم : ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ

يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران:٤٤].

وقال تعالى بعد قصة نوح عليه السلام :﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود:٤٩].

" فذكر سبحانه أن هذا الذي أوحاه إليه من أنباء الغيب ما كان يعلمه هو ولا قومه من قبل هذا، فإذا لم يكن قومه يعلمون ذلك لا من أهل الكتاب ولا من غيرهم، وهو لم يعاشر إلا قومه، وقومه يعلمون ذلك منه، ويعلمون أنهم لم يكونوا يعلمون ذلك، ويعلمون أيضا أنه هو لم يكن تعلم ذلك، وأنه لم يكن ليعاشر غيرهم، وهم لا يعلمون ذلك صار هذا حجة على قومه وعلى من بلغه خبر قومه " [١].

لقد كان معلوما عند كل من اطلع على ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم أنه جاء بأمر معجز لا يستطيعه أحد من الخلق، فقد كان معجزا من وجوه متعددة ؛ في ألفاظه ومعانيه وغيوبه وأخباره .

ومثل هذا المعجز لا يأتي به إلا الأنبياء عليهم السلام الذين يأتيهم الوحي من الله تعالى أو من نقل عن الأنبياء .

فجاء القرآن ليستدل على نبوته صلى الله عليه وسلم بأنه لم يتصل بأحد من أهل الكتب السابقة ولم يعاشرهم ؛ فضلا أن يأخذ عنهم .

---

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٣٢٣)

ولقد كان قومه – العارفون بحاله – يعلمون هذا من سيرته قبل أن يوحى إليه وبعد أن أوحي إليه .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل:١٠٣] .

وقد جاء في سبب نزول الآية أن قينا روميا كان بمكة فكان النبي صلى الله عليه وسلم يجلس إليه، وفي بعض الروايات أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يأتيه ويدعوه إلى الإسلام فقال بعض كفار قريش : إنما يتعلم محمد – صلى الله عليه وسلم – القرآن من هذا الأعجمي [(١)].

" وقد كشف القرآن هذا اللبس هنا بأوضح كشف إذ قال قولا فصلا دون جدال

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل : ١٠٣]، أي كيف يعلمه وهو أعجمي لا يكاد يبين، وهذا القرآن فصيح عربي معجز "[(٢)].

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم " لا يحسن أن يتكلم بلسان العجمي وذاك لا يحسن أن يتكلم بهذا الكلام العربي، فلما قالوا : إنه افترى هذا القرآن، وأنه علمه إياه بشر، قال تعالى : ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ﴾

(١) انظر تفسير الطبري (١٤/ ٣٦٤)، تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٣) . الدر المنثور (٩/ ١١٥)

(٢) التحرير والتنوير (١٤/ ٢٨٧)

أي يضيفون إليه هذا التعليم، وينسبونه إليه .

وعبر عنه بلفظ الإلحاد لما فيه من الميل، فقال : لسان هذا الشخص الذي قالوا إنه يعلمه القرآن لسان أعجمي، وهم لم يمكنهم أن يضيفوا هذا التعليم إلى رجل عربي، بل إلى هذا الأعجمي، لكونه كان يجلس أحيانا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وذلك الأعجمي لا يمكنه التكلم بهذا الكلام العربي، بل هو أعجمي،ومحمد لا يعرف بالعجمية، لكن غاية ذلك الأعجمي ... أنه يعرف قليلا من كلام العرب الذي يحتاج إليه في العادة مثل الألفاظ التي يحتاج إليها في غالب الأوقات، كلفظ الخبز والماء والسماء والأرض، ولا يعرف أن يقرأ سورة واحدة من القرآن "[١].

وقد جاء الرد على زعمهم في الآية من وجهين:

الأول: أن هذا القرآن معجز بألفاظه العربية، فكيف يمكن أن يتلقاه من رجل أعجمي اللسان، لا يعرف العربية ولا يتقنها فضلاً أن يأتي بأرفع الكلام وأوضحه وأعلاه.

الثاني: أن العلوم العظيمة المفضلة التي جاء بها القرآن لا يمكن أن يتلقاها ﷺ على هذا التفصيل والبيان ممن لا يحسن العربية.

وقد جاء التعبير في الآية بقوله: ﴿بَشَرٌ﴾ ليجمل القول ويتضمن الرد عليه؛ إذ من عرف القرآن الكريم وخبر ما جاء به محمد ﷺ يدرك أنه لا يمكن أن يكون من تعليم بشر ولا تلقينه؛ كائنًا من كان؛ فجاء التعبير عن

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٣٣٢)

قولهم بما يشمل رده ودحضه وبيان بطلانه وكذبه.

وفي سياق الرد على كذبهم وشبهتهم لم يكتف السياق ببيان أن الذي يلحدون إليه أعجمي والقرآن عربي -مع أنه كان كافيًا في رد شبهتهم- ولكن جاء وصف القرآن بأنه ﴿عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ فقد جاء بأحسن الألفاظ في أجود النظوم والتراكيب، كما جاء مبينًا عن المعاني العظيمة الجليلة التي يتضمنها بأحسن سبيل.

ولا يعرف شيء من الكتب -حتى السماوية منها- قد جاء ببيان ما يحتاج إليه الناس في عاجلهم وآجلهم كما جاء به القرآن الكريم [(١)] .

فهذا الدليل الذي أشار إليه القرآن هو من أعظم الدلائل على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم وأنه رسول من عند الله تعالى ليس بكاذب ولا ساحر ولا كاهن، فإن القرآن الكريم مملوء من أخبار الغيب، وقصص الماضين كقصة آدم عليه السلام وزوجه وإسكانه الجنة ثم إخراجه منها، وقصة نوح عليه السلام ودعوته قومه، وتكذيبهم له ولبثه فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما وإهلاكهم بالغرق، وقصة إبراهيم الخليل عليه السلام وما جرى له مع قومه، وخبر إلقائه في النار، ومجيء الملائكة إليه في صورة ضيفان، وذهاب الملائكة إلى لوط عليه السلام وما جرى له مع قومه، وكيف أهلكهم الله تعالى، وقصة مدين، وهود عليه السلام وقومه، وصالح عليه السلام وقصة الناقة وتكذيب قومه له، وقصص بني إسرائيل وما

---

(١) راجع ما يأتي في المبحث السابع والثامن.

جرى لهم مع أنبيائهم عليهم السلام، ومبعث موسى عليه السلام وأحواله مع قومه، وقصته مع فرعون وكيف أغرقه الله تعالى في اليم، ونحو ذلك من القصص التي ذكرها القرآن الكريم عن الأنبياء عليهم السلام كإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف و داوود وسليمان و زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام، وما قصه الله تعالى عن غير الأنبياء كقصة الخضر وأصحاب الكهف وذي القرنين وصاحب الجنتين، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، وغير ذلك من القصص والأخبار التي جاء سياقها في القرآن مفصلة مبينة بأحسن بيان، وهي أمور لا تدرك بالعقل ولا يعرفها الناس إلا من جهة الأنبياء الذين أوحى الله إليهم بذلك، فإما أن يكون هو صلى الله عليه وسلم نبيا تلقاه من الله تعالى، أو يكون أخذه من أتباع الأنبياء، وهذا الاحتمال الثاني نسوقه من باب التنزل وإلا فإن ما أخبر الله تعالى به في كتابه مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم لا يوجد مثله على هذا النحو من التفصيل والبيان في كتب أهل الكتاب مع ما أتى عليها من التحريف والتغيير والتبديل، ومع ذلك فإن احتمال أن يكون أخذه عن أتباع الأنبياء من أهل الكتاب غير وارد لأنه صلى الله عليه وسلم بشهادة أعدائه وأوليائه لم يجتمع بأحد من أهل الكتاب لا قبل النبوة ولا بعدها، ولا كان عنده بمكة من يعرف هذه الأخبار لا من أهل مكة ولا غيرهم، ومما يشهد لذلك ويدل عليه أمور منها :

أولاً: أن أكثر قومه كانوا من أعظم الناس عداوة له، وحرصا على

تكذيبه والطعن فيه، وبحثا عما به يقدحون فيه، فلو كان تعلم هذا الأخبار من أهل الكتاب لطعنوا عليه بذلك وأظهروه واتخذوه ذريعة لرد دعوته، وتكذيب رسالته، فلما لم يفعلوا مع تمام علمهم بحاله وسيرته وحياته علم أن ذلك لم يقع .

ثانياً: أنه لو تعلم هذه الأخبار من أهل الكتاب لكانوا يخبرون بذلك ويظهرونه خصوصا مع شدة عداوة أكثرهم له، وحرصهم على انخفاض دينه، فلما لم يفعلوا دل على أنه لم يأخذ ذلك عنهم .

وكل من خبر سيرته مع أهل الكتاب، وما جرى بينه وبينهم من النزال ؛ تارة بالحجة والبرهان، وتارة بالسيف والسنان، وهو في كل مرة يظهر عليهم بالدليل والحجة، وبالسيف والقوة حتى سبى نساءهم وقتل مقاتلتهم وأجلاهم من أرضهم، ثم يعلمون أنه تلقى دينه عنهم ولا يظهرون ذلك ولا يحتجون به عليه، هذا من أمحل المحال وأظهر الباطل .

ثالثاً: أن أحواله وأخباره صلى الله عليه وسلم من حين مولده إلى حين وفاته معلومة مستفيضة مشهورة تناقلها الناس، وحكوا دقائقها في حياته العامة والخاصة، فلا يمكن لمثل هذا الأمر العظيم الذي له أثر على دعوته أن يحصل ثم لا ينقل، بل ولا يعرف به أحد .

وغير ذلك من الدلائل والبراهين التي تدل على أنه لم يتصل بأحد من أهل الكتاب ولم يأخذ عنهم شيئا من شريعته إلا ما أوحاه الله تعالى إليه [1] .

---

(١) انظر : الجواب الصحيح (٥/ ٣٨٧ وما بعدها)

المبحث الخامس: إتيانه ﷺ بمثل ما جاءت به الأنبياء عليهم السلام من أصول الدين.

ابتعث الله تعالى رسله عليهم السلام إلى الناس لدعوتهم إلى توحيده وإخلاص العبادة له، وتحذيرهم من الشرك وعبادة غير الله تعالى من الأشجار والأحجار، والكواكب والنجوم والبشر والجن، والأولياء والأنبياء: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء:٢٥].

كما ابتعث الرسل عليهم السلام بالدعوة إلى أصول الأخلاق التي فطر الناس عليها كالصدق والعدل والأمانة، وتحريم الكذب والظلم والفواحش. وهي أصول اتفقت عليها دعوات الرسل عليهم السلام ؛فكلهم يدعون إلى الإسلام ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، وإن اختلفوا في الشرائع والمنهاج ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾ [المائدة:٤٨].

يقول جل وعلا: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن بدعا من الرسل عليهم السلام ،بل جاء بمثل ما جاءت به الرسل من قبله فدعا إلى توحيد الله وإخلاصه وإفراده بالعبادة والدعاء والتوكل والرغبة والرهبة، وأمر

بالصدق والعدل والكرم والوفاء ومكارم الأخلاق ، ونهى عن الشرك والظلم والفواحش والكذب والخيانة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميه: "جميع ما يذكره الله تعالى من قصص الأنبياء يدل على نبوة محمد بطريق الأولى؛ إذ كانوا من جنس واحد، ونبوته أكمل، فينبغي معرفة هذا، فإنه أصل عظيم "[1]. أهـ.

ولقد كان هذا التوافق بين دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ودعوة سائر الأنبياء عليهم السلام مما استدل به القرآن الكريم على صحة نبوته وصدق دعوته، يقول الله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الصافات:٣٥-٣٧]. فليس ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم شعرا ولا ضربا من الجنون، بل هو حق من الله تعالى موافق لما جاءت به الرسل الكرام عليهم السلام، يقول أبو حيان : " ثم أخبر أنه صدق من تقدمه من المرسلين ؛ إذ هو وهم على طريقة واحدة في دعوى الأمم إلى التوحيد وترك عبادة غيره "[2]. أهـ.

ويقول السعدي : " وصدق – أيضا – المرسلين بأن جاء بما جاؤوا به، ودعا إلى ما دعوا إليه، وآمن بهم، وأخبر بصدق رسالتهم ونبوتهم وشرعتهم "[3]. أهـ.

---

١)) النبوات (١/ ٢٠٣).

(٢) البحر المحيط (٧/ ٧٤٣)

(٣) تفسير السعدي (ص ٦٤٨)

ويقول ابن عاشور : " وأتبع ذلك بتذكيرهم بأنه ما جاء إلا بمثل ما جاءت به الرسل من قبله، فكان الإنصاف أن يلحقوه بالفريق الذي شابههم دون فريق الشعراء أو المجانين .

وتصديق المرسلين يجمع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إجمالا وتفصيلا، لأن ما جاء به لا يعدو أن يكون تقريرا لما جاءت به الشرائع السالفة فهو تصديق له ومصادقة عليه، أو أن يكون نسخا لما جاءت به بعض الشرائع السالفة .

والإنباء بنسخه وانتهاء العمل به تصديق للرسل الذين جاؤوا به في حين مجيئهم به، فكل هذا مما شمله معنى التصديق، وأول ذلك إثبات الوحدانية له تعالى .

فالمعنى : أن ما دعاكم إليه من التوحيد قد دعت إليه الرسل من قبله "[1] .أهـ.

ويقول سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة/ ١٠١] .

ويقول سبحانه: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ﴾ [البقرة:٤١] .

يقول السعدي :"﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي موافقا له، لا مخالفا ولا

(١) التحرير والتنوير (١٠٨/٢٣)

مناقضا له، فإذا كان موافقا لما معكم من الكتب غير مخالف لها فلا مانع لكم من الإيمان به، لأنه جاء بما جاء به المرسلون فأنتم أولى من آمن به وصدق به لكونكم أهل الكتاب والعلم .

وأيضا فإن قوله:(مصدقا لما معكم) إشارة إلى أنكم إن لم تؤمنوا به عاد ذلك عليكم بتكذيب ما معكم ؛ لأن ما جاء به هو الذي جاء به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء فتكذيبكم له تكذيب لما معكم ... الخ "[(١)].

ويقول ابن عاشور: " ... أتى بالحال التي هي علة الصلة ؛ إذ جعل كونه مصدقا لما في التوراة علامة على أنه من عند الله، وهي العلامة الرئيسية المناسبة لأهل العلم من أهل الكتاب، فكما جعل الإعجاز اللفظي علامة على كون القرآن من عند الله لأهل الفصاحة والبلاغة من العرب ... كذلك جعل الإعجاز المعنوي، وهو اشتماله على الهدى الذي هو شأن الكتب الإلهية علامة على أنه من عنده لأهل الدين والعلم بالشرائع ... والمراد من كون القرآن مصدقا لما معهم أنه يشتمل على الهدى الذي دعت إليه أنبياؤهم من التوحيد، والأمر بالفضائل، واجتناب الرذائل، وإقامة العدل، ومن الوعد والوعيد والمواعظ والقصص ... الخ"[(٢)].

وقد أخبر الله تعالى في كتابه الكريم أن أهل الكتاب يعلمون صدق النبي صلى الله عليه وسلم وصحة ما جاء به لأنهم يجدونه مصدقا لما معهم

(١) تفسير السعدي (ص ٣٣)

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٥٨-٤٥٩)

من الكتاب، يقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأنعام:١١٤].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " وعلماء بني إسرائيل يعلمون ذكر إرسال محمد ﷺ، ونزول الوحي عليه، كما قال الله تعالى : ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف : ١٥٧].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [الأنعام:١١٤] .

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [القصص: ٥٢] .

وقال: ﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [القصص: ٥٣].

ويعلمون المعاني التي فيه أنها موافقة لأقوال الرسل قبله في الخبر والأمر .

فإنه أخبر عن توحيد الله وصفاته وعرشه وملائكته، وخلقه السماوات والأرض وغير ذلك بمثل ما أخبرت به الرسل قبله، وأمر بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، وبالعدل والصدق والصلاة والزكاة، ونهى عن الشرك والظلم والفواحش، كما أمرت ونهت الرسل قبله .

والسور المكية نزلت بالأصول الكلية المشتركة، التي اتفقت عليها الرسل التي لا بد منها، وهي الإسلام العام الذي لا يقبل الله من أحد من

الأولين والآخرين دينا غيره .

وأما السور المدنية ففيها هذا، وفيها ما يختص به الرسول صلى الله عليه وسلم من الشرعة والمنهاج ؛ فإن دين الأنبياء واحد كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إنا معشر الأنبياء ديننا واحد "[١]، قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٣] ... "[٢].

ويقول ابن عاشور: " ومعنى علم الذين أوتوا الكتاب بأن القرآن منزل من الله أنهم يجدونه مصدقا لما في كتابهم، وهم يعلمون أن محمدًا صلى الله عليه وسلم لم يدرس كتابهم على أحد منهم ؛ إذ لو درسه لشاع أمره بينهم، ولأعلنوا ذلك بين الناس حين ظهور دعوته، وهم أحرص على ذلك، ولم يدعوه ... الخ "[٣].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، قول الله: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ ...﴾، ومسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام رقم (٢٣٦٥)

(٢) الجواب الصحيح (٥/ ٣٤٠-٣٤٢)

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ١٦)

ويقـــول تعـــالى : ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء: ١٩٦-١٩٧] .

أي أن الهدي الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم في كتب الأنبياء السابقين كالتوراة والإنجيل .

قال ابن عاشور: " المعنى: أن ما جاء به القرآن موجود في كتب الأولين ... ولا تجد شيئا من كلام المسيح عليه السلام المسطور في الأناجيل غير المحرف عنه إلا وهو مذكور في القرآن . والمقصود : أن ذلك آية على صدق أنه من عند الله، وهذا معنى كون القرآن مصدقا لما بين يديه "[1].

ثم قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء :١٩٧].

فعلماء بني إسرائيل يعلمون صدق القرآن، وصدق ما جاء به، ويعلمون أن ماجاء به مطابق لما عندهم من الكتب السماوية التي لم تحرف، ويعلمون أن ما جاء به من الأصول والعقائد والقواعد موافق لما جاءت به الرسل عليهم السلام[2].

ولما كان ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم موافق لما جاءت به الرسل عليهم السلام قبله، كان التكذيب له تكذيب لمن قبله من المرسلين على وجه الحقيقة ؛ لأن الدعوة واحدة.

(١) المرجع السابق (١٩/ ١٩٢)

(٢) انظر: الجواب الصحيح (٥/ ٣٤١)، تفسير ابن كثير (٦/ ١٧٣)، التحرير والتنوير (١٩/ ١٩٢)

يقول ابن القيم: " إنه لا يمكن الإيمان بنبي من الأنبياء أصلا مع جحود نبوة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنه من جحد نبوته فهو لنبوة غيره من الأنبياء أشد جحدا، وهذا يتبين بوجوه: ...

الوجه الثاني: أن دعوة محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه هي دعوة جميع المرسلين قبله من أولهم إلى آخرهم، فالمكذب بدعوته مكذب بدعوة إخوانه كلهم، فإن جميع الرسل جاؤوا بما جاء به، فإذا كذبه المكذب فقد زعم أن ما جاء به باطل، وفي ذلك تكذيب كل رسول أرسله الله وكل كتاب أنزله الله، ولا يمكن أن يعتقد أن ما جاء به صدق وأنه كاذب مفترٍ على الله " [(١)].

وقد استعمل العقلاء المنصفون والباحثون عن الحق هذا الطريق لمعرفة صدق النبي صلى الله عليه وسلم وصحة نبوته وأنه ليس بكاذب ولا مجنون، فهذا ورقة بن نوفل لما أخبره النبي صلى الله عليه وسلم بما رآه وسمعه في غار حراء مبدأ نزول الوحي، وكان ورقة قد تنصر وكان يكتب الإنجيل بالعبرانية قال له: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى، وإن قومك سيخرجونك فقال صلى الله عليه وسلم : أو مخرجي هم ؟ فقال: نعم، لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً [(٢)].

---

(١) هداية الحيارى (ص ٣٥٩)

(٢) رواه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم رقم (٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم رقم (٤٠٣)

وبمثل هذا الطريق استدل النجاشي ملك الحبشة لما سمع القرآن من المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة فقال: " إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة "[1].

فهؤلاء الكتابيين لما رأوا أحواله وسمعوا ما جاء به استدلوا على صحته بموافقة ما عند الأنبياء السابقين عليهم السلام .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " المدعي للرسالة في زمن الإمكان إذا أتى بما ظهر به مخالفته للرسل علم أنه ليس منهم، وإذا أتى بما هو من خصائص الرسل علم أنه منهم، لا سيما إذا علم أنه لابد من رسول منتظر ... الخ" [2].

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٠١)، وابن إسحاق في السيرة . انظر سيرة ابن هشام (١/ ٣٦٢) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢٩٥) بألفاظ متقاربة، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٤) " رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح " أهـ

(٢) شرح الأصفهانية (ص٩٣)
وانظر ص (٩١، ١٠٥، ١٥٠ وما بعدها) ففيها كلام نفيس يتعلق بهذا المبحث

المبحث السادس: ما أظهر تعالى على يديه صلى الله عليه وسلم من المعجزات والدلائل الباهرات.

ابتعث الله تعالى رسله عليهم السلام وأيدهم بالدلائل والآيات، والبراهين والمعجزات[1] التي تشهد بصدقهم، وتؤيد نبوتهم، وتحمل الناس

(١) الدلائل التي تشهد على نبوة الأنبياء تسمى في القرآن الكريم:

آية كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الإسراء/ ١٠١].

وقوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾[الأعراف/ ٧٣].

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ [المؤمنون/ ٥٠].

وقوله: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر/ ١-٢].

وتسمى بينة: كقوله تعالى: ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [الأنعام/ ١٥٧].

وقوله: ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ [الأعراف/ ٧٣].

وقوله: ﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ [هود/ ٥٣].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [البقرة/ ٩٢].

وتسمى برهاناً: كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء/ ١٧٤].

وقوله: ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ ﴾ [القصص/ ٣٢].

وبعض أهل العلم يسميها معجزات، ويعرفونها بأنها:

الأمر الخارق للعادة، المقرون بالتحدي، السالم عن المعارضة ... وزاد بعضهم: اقترانها بدعوى النبوة.

=

على الإيمان بما جاؤوا به، يقول صلى الله عليه وسلم: " ما من نبي إلا وأوتي على ما مثله آمن البشر "[٢] .

وقد قص الله تعالى في كتابه آيات الرسل عليهم السلام، فهذا صالح عليه السلام قال لقومه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [الشعراء: ١٤٢-١٤٣].

فقالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٤] فأيده الله ببرهان من عنده: ﴿هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء/ ١٥٥].

فكانت آية بينة ومعجزة واضحة كما قال سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ﴾ [الأعراف/ ٧٣]، وقال سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء/ ٥٩] .

وهذا إبراهيم الخليل عليه السلام كانت النار التي كاده قومه بها بردا وسلاما عليه: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء/ ٦٩].

= والحق أنما ما جاء في النصوص أدل على المقصود ؛ إذ دلائل النبوة وآيات الأنبياء أعم من أن تكون مقرونة بالتحدي أو دعوى النبوة، فآيات الأنبياء قد تكون قبل إنبائهم وقد تكون بعده، فولادة عيسى عليه السلام من غير أب من آياته، ولم يكن بعد قد أوحي إليه. وكثير من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم تكون بين أصحابه رضي الله عنهم غير مقرونة بتحد كتكثير الماء والطعام .

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي (٤٩٨١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم (١/ ١٣٤)

وهذا موسى الكليم عليه السلام قال عنه : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء/ ١٠١-١٠٢].

وقد كانت المعجزات التي أجراها الله على يد رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أحد الدلائل التي ساقها القرآن للاحتجاج على نبوته .

يقول السعدي: " يقرر (القرآن) رسالته صلى الله عليه وسلم بما أظهر على يديه من المعجزات، وما أجرى له من الخوارق والكرامات الدال كل واحد منها بمفرده – فكيف إذا اجتمعت – على أنه رسول الله الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ".[1] أهـ.

ومن هذه الآيات التي ساقها القرآن لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، حادثة الإسراء والمعراج .

يقول تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء/ ١].

فذكر تعالى منته على عبده وأنه أسرى به بين المسجدين العظيمين، فأخبر قومه حين أصبح فسارعوا إلى إنكاره كعادتهم في التكذيب، وأخبرهم عن نعته وصفته، ولم يكن رآه قبل ذلك، وأخبرهم خبر عيرهم

(١) القواعد الحسان (ص٢٣)

التي كانت في الطريق، فكان هذا آية على صدقه، عن جابر رضي الله عنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا انظر إليه " .(٢)

وقد رفعه الله تعالى درجات في هذا الإسراء حيث أم الأنبياء بمسجد بيت المقدس، وأراه من آياته ما ثبّت به نبوته وازداد به هدى وبصيرة ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء / ١]، ثم عرج به إلى السماء وأراه من آياته جل وعلا كما قال سبحانه: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم / ١٢-١٨] .

فقطعه صلى الله عليه وسلم للمسافات الطويلة في المدة القصيرة، وإخباره بما رآه من الغيب والملائكة والأنبياء، وأحوال السماء، والجنة والنار، وجبريل عليه السلام والبيت المعمور وسدرة المنتهى ؛ كل ذلك من آيات الله الكبرى التي أراها عبده صلى الله عليه وسلم معجزة له وبرهانا على نبوته .

والذين آمنوا به صلى الله عليه وسلم قبل، وقبلوا رسالته يصدقونه

---

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة بني إسرائيل رقم (٤٧١٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم (١/ ١٠٩)

فيما أخبر به من الإسراء والمعراج، والذين لم يؤمنوا يدرك المنصف منهم صدق خبره فيما غاب بما أخبر به مما يعرفه كإخباره عن صفة بيت المقدس ونعته وهو لم يكن رآه من قبل .

كما يعلم أهل الكتاب صدقه لأن ما أخبر به من الآيات هو من جنس ما أخبرت به الأنبياء عليهم السلام، وبعضه موجود في كتبهم .

وحادثة الإسراء والمعراج شأنها شأن بعض دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم، هي من الفتن التي يبتلي بها الله عباده فتكون تثبيتا لأقوام وفتنة لآخرين كما قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء / ٦٠] .

قال ابن عباس: " هي رؤيا عين أريها النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به " [(١)] .

ومن آياته التي ذكرها القرآن استدلالا على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم حادثة انشقاق القمر كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ [القمر / ١-٥] .

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً﴾ (٨/ ٣٩٨ فتح الباري) وبهذا فسرها مجاهد وسعيد بن جبير والحسن ومسروق وإبراهيم وقتادة وعبدالرحمن بن زيد وغيرهم .
انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٨٩)

عن أنس رضي الله عنه قال: " إن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين، حتى رأوا حراء بينهما "[(١)].

وفي رواية: فنزلت: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر: ١-٢][(٢)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر ونحن مع النبي صلى الله عليه وسلم بمنى فقال: " اشهدوا " [(٣)].

ولما تعنت هؤلاء المشركون وقالوا: سحرنا محمد، جاء السفار من كل جهة فأخبروا أنهم رأوا القمر تلك الليلة وقد انشق فرقتين [(٤)].

فبين جل وعلا أن انشقاق القمر آية من آيات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأن هذا هو المقصود من انشقاقه ليعتبر الناس ويؤمنوا ويصدقوا، ولكن من طمس على قلبه وغلبت عليه الغفلة فإنه يعرض، ويرد هذه الآية بما يعلم أنه كذب وباطل .

فالمانع لهم من التصديق والإيمان بعد هذه الآية البينة هو أنهم ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾، وإلا فإنه قد جاءهم من الآيات والحوادث ما فيه

(١) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب انشقاق القمر (٧/ ١٨٢ فتح الباري)،ومسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب انشقاق القمر (٤/ ٢١٥٩) رقم (٢٨٠٢).

(٢) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، سورة القمر، (٥/ ٣٩٧) رقم (٣٢٨٦).

(٣) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب انشقاق القمر (٧/ ١٨٢ فتح الباري)، ومسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب انشقاق القمر، (٤/ ٢١٥٨) رقم (٢٨٠٠) .

(٤) رواه البيهقي في الدلائل (٢/ ٢٦٥-٢٦٦) وأبو نعيم في الدلائل (١/ ٣٦٩-٣٧٠) وأبو داوود الطيالسي في المسند (٣٨) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

واعظ وزاجر لهم عن التمادي في الكفر والإعراض ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ .

قال الخطابي: " انشقاق القمر آية عظيمة لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء "[١].

وقال ابن كثير عن انشقاق القمر: ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة، وهذا أمر متفق عليه بين العلماء، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات .[٢]. أهـ

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: " ذكر الله انشقاق القمر، وبين أن الله فعله، وأخبر به لحكمتين عظيمتين:

إحداهما: كونه من آيات النبوة، لما سأله المشركون آية فأراهم انشقاق القمر .

والثانية: أنه دلالة على جواز انشقاق الفلك، وأن ذلك دليل على ما أخبرت به الأنبياء من انشقاق السماوات " [٣].

فهذه الآيات والبراهين التي ذكرها القرآن لنبينا صلى الله عليه وسلم هي دليل على نبوته، لأن هذه المعجزات التي لم يعتد جنسها لغير الأنبياء ولا معارض لها هي من خصائص الأنبياء عليهم السلام، والله تعالى " لا يؤيد كذاباً بمعجزة لا معارض لها، لأن في ذلك من الفساد والضرر بالعباد

---

(١) فتح الباري (٧/ ١٨٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٤٤٧) مختصراً.

(٣) الجواب الصحيح (٦/ ١٥٩).

ما تمنعه رحمته، وفيه من سوء العاقبة ما تمنعه حكمته، وفيه من نقض سنته المعروفة وعادته المطردة ما تعلم به مشيئته، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة / ٤٤-٤٧]"[١].

والله أعلم .

(١) شرح الأصفهانية (ص١٦٠).

المبحث السابع: صدق القرآن وعجز الكفار عن معارضته .

اقتضت سنة الله تعالى في خلقه أن يرسل الرسل عليهم السلام مبشرين ومنذرين، ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ويدلوهم إلى الصراط المستقيم، ويحذروهم من طريق الغواية والشر الذي يوصل إلى الجحيم، فبهم تتبين المحجة، وتقوم الحجة على المكلفين ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء/ ١٥].

وكان من لوازم هذا الإرسال أن تقوم الدلائل والبينات على صدق هذا الرسول وأنه من عند الله تعالى ، حتى يتبين النبي الصادق من المتنبئ الكاذب وحتى تقوم الحجة على الخلق، يقول صلى الله عليه وسلم :(مامن نبي إلا وأوتي على مامثله آمن البشر، وكان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة" . [١].

ولقد كان أعظم ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، بل ما جاء به الرسل كافة كتاب الله ، القرآن الكريم ؛ الكتاب والآية والبرهان والذي وقع به التحدي دون سائر آيات محمد صلى الله عليه وسلم " [٢].

فإن آياته صلى الله عليه وسلم الدالة على نبوته كثيرة متعددة، و البراهين على صدقه متنوعة، حتى لقد عدها بعض من ألف في دلائل النبوة

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) انظر: النبوات (١/ ٥٤١)

فنافت على الألف آية ، وهي كلها تشهد له بصدق ما جاء به وصدق ما يدعو إليه ؛ إذ إن الدلائل على صدقه صلى الله عليه وسلم وأنه من عند الله لا تقتصر على القرآن الذي وقع به التحدي كما ذهب إلى ذلك المتكلمون [٣] بل كل ما يشهد على صدقه من الدلائل والبراهين كإخباره بالمغيبات وتكثير الطعام ، والماء ، وتأييده وظهوره على أعدائه ، واندحار من ناوأه وعاداه ، وما هو معروف من سيرته وخلقه من الصدق والأمانة والوفاء بالعهد ، ومن أعظم الدلائل على صدق النبوة صحة ما يدعو إليه من الخير والإيمان بالله وملائكته واليوم الآخر، وبعده عن ضد ذلك وتحذيره منه، كل هذا وغيره من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم .

ويأتي في مقدمة هذه الدلائل هذا الكتاب المعجز، الذي أعجز الخلق أن يأتوا بمثله : ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء/ ٨٨] .

لقد كان القرآن الكريم هو الدعوة وهو الحجة وهو المحجة .

فقد أخبر الله تعالى في غير موضع أن هذا الكتاب شاهد لصدق محمد صلى الله عليه وسلم وأنه رسول من عند الله تعالى ، وذلك لما اشتمل عليه من الحق والبرهان والهدى والنور، ولأنه فوق طاقة البشر، يعجزون أن يأتوا بمثله ولو اجتمعوا على ذلك .

---

(٣) انظر: المرجع السابق (١/ ٢٣٨)

وقد اختلف الناس في وجوه إعجاز القرآن، وعدوا لذلك أنواعا متعددة، فمنهم من قال: إنه معجز بفصاحته وبلاغته وبيانه .

ومنهم من قال: إعجازه في إخباره بالغيوب .

ومنهم من قال: إعجازه في المعاني التي اشتمل عليها ، ودعا إليها .

والحق أنه معجز في هذا كله .

وإن كان كثير من الباحثين يرى أن إعجازه في لغته وبيانه هو الوجه الأول الذي وقع به التحدي ، إلا أن الصواب - والله أعلم - أن إعجازه في معانيه أعظم من إعجازه في ألفاظه، وما الألفاظ إلا خادمة للمعاني .

ولئن كان هؤلاء يرون أن التحدي وقع في أقصر سورة منه ، مما عساها لايكون معه إخبار بالغيب ولا تشريع ولا كشف تجريبي ولا نحو ذلك، وإنما فيها تحقيق روعة البيان وحسن النظم ، فإننا نقول إن فيها علو المعاني وجلالتها وكمالها في كل باب ، وإن كل سورة من سور القرآن طالت أم قصرت فيها من المعاني العظيمة ما يعجز الجن والإنس ولو اجتمعوا أن يأتوا بمثله ، كما أن فيها من جودة النظم وحسن السياق ما يعجزون عن إدراكه أيضا ، وهذا يظهر جليا لكل من تدبر في معانيه وعرف مقدار ما احتوته سوره وآياته من الدعوة إلى التوحيد والبر والخير، وتعريف الناس بربهم وما يجب له من الأسماء الحسنى والصفات العلى ، وما ينبغي له من العبادة التي لا تجوز إلا له ، كما فيه الدعوة إلى الإيمان بالملائكة والرسل وما أنزل عليهم من الكتب ، والإيمان بالمعاد والقدر خيره وشره، وبيان سبيل المؤمنين ، وطريق الغاوين وما يحل بكل فريق منهما من الخير والشر، وغير

ذلك مما لا يعرفه الخلق إلا عن طريق الرسل عليهم السلام ، وهي من الأصول التي تكفل للناس سعادتهم في عاجلهم وآجلهم ، ولم يزالوا يعرفون ذلك من لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا.

وهي قضايا لا يمكن أن يأتي بها إلا من أوحى الله تعالى إليه من الرسل الكرام، إذ المتنبئ الكذاب أو الساحر والكاهن لا يأتي بالخير أو يدعو إلى الفضيلة ، وهذا يعرفه الناس من أحوال الرسل وأحوال السحرة والكاذبين .

ولذا لا يلتبس حال هؤلاء بحال أولئك لعظيم ما بينهم من التمايز في أحوالهم وصفاتهم وما يدعون إليه ، وفي عاقبتهم ومآلهم في الدنيا ثم ما يتبع ذلك في الآخرة .

إذاً فإعجاز القرآن على الحقيقة لا يقتصر على إعجازه اللفظي بل يتعداه إلى إعجازه المعنوي .

قال ابن تيمية: "وكون القرآن معجزة ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط ، أو نظمه وأسلوبه فقط ، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط ،ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط ، ولا من جهة سلب قدرتهم عن معارضتهم فقط ، بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة ، من جهة اللفظ ، ومن جهة النظم ، ومن جهة البلاغة ، في دلالة اللفظ على المعنى ، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته، وغير ذلك .

ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي ، وعن الغيب

المستقبل، ومن جهة ما أخبر به عن المعاد.

ومن جهة ما يبين فيه من الدلائل اليقينية والأقيسة العقلية، التي هي الأمثال المضروبة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء/ ٨٩].

وكل ما ذكر الناس من الوجوه في إعجاز القرآن هو حجة على إعجازه ولا تناقض في ذلك، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له.

ومن أضعف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام: إنه معجز بصرف الدواعي مع تمام الموجب لها، أو بسلب القدرة التامة، أو بسلبهم القدرة المعتادة في مثله سلباً عاماً ...

فالإعجاز في معناه أعظم وأكثر من الإعجاز في لفظه، وجميع عقلاء الأمم عاجزون عن الإتيان بمثله أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه...الخ"[1].

وأظن أن أكثر ما وقف ببعض الباحثين المتقدمين في موضوع الإعجاز على الإعجاز اللفظي هو أنهم كانوا من المتكلمين، فلم يستبينوا ما في القرآن الكريم – في سوره القصيرة والطويلة – من حسن المعاني التي دعا إليها في العقائد والشرائع والأخلاق، وخصوصا في مباحث العقائد التي كانوا في جوانب منها على خطأ وزلل[2]، ولذا لم يقفوا عند جانب

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٤٢٨- ٤٣٤)

وانظر: النبوات (١/ ٥١٦)، شرح الأصفهانية (ص١٦٧).

(٢) كانحراف المتكلمين في دلائل إثبات الخالق ووحدانيته وأسمائه وصفاته، وإيجابهم أدلة منطقية لم =

المعاني كثيرا ، ولم يولوها ماتستحق من العناية والرعاية ، ولم يبرزوا ما في القرآن من تلك الجوانب، وقد كان من أسباب ذلك ما هم عليه من الانحراف في بعض أبواب العقا ئد ، ومناهج التلقي، وإثبات التوحيد والرسالة ، وغير ذلك ، فقصر بهم بحثهم وتوقفت معرفتهم عند المباحث اللفظية والبيانية ، وظنوا أن كثيرا من هذه الأصول والاستدلال عليها إنما يؤخذ من غير القرآن كالنظر والمقدمات العقلية التي سلطوها على النصوص[1].

ولقد أحسنوا في بيان إعجاز القرآن الكريم في هذا الجانب ، وقد قدموا فيه جهداً مشكوراً نسأل الله أن يثيبهم عليه ، ولكن قصرت معرفتهم عن بيان ما في هذا الكتاب العظيم والمعجزة الباقية ، من المعاني الجليلة في العقائد والشرائع والأخلاق والغيوب وغير ذلك مما لا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله ولو اجتمعوا عليه متظاهرين .

فالقرآن العظيم أكبر شاهد على صدق النبي صلى الله عليه وسلم

= ترد في الشرع ، ويعتبرون من لم يعرفها مقصرا في تحقيق الإيمان ، وكانحرافهم أيضا في طرق إثبات الرسالة ، وهم في كل ذلك يوجبون ويسلكون طرقا لم تأت بها الشريعة ؛ إما أنها غير موصلة للمقصود، أو أنها موصلة مع شيء من الضعف والوهن، ويعرضون عما في القرآن من الدلائل القطعية والأقيسة الصحيحة والأمثال المضروبة التي يفهمها كل أحد، وهي أبلغ في الوصول للمقصود والدلالة عليه . انظر للاستزادة : النبوات (١/ ٢٤٥ وما بعدها) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٢) ، مجموع الفتاوى (٣/ ٢٩٣ وما بعدها).

(١) وهذا موضع يحتاج إلى مزيد بحث وتحرير، وجمع تحليل. لعل الله أن ييسر ذلك ، وهو مجال خصب للبحث .

وأنه رسول من عند الله وقد قرر الله تعالى هذا المعنى في كتابه في غير موضع، يقول سبحانه : ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ [العنكبوت/ ٥٠-٥١] .

"فهو كاف في الدعوة والبيان ، وهو كاف في الحجة والبرهان" [١].

قال السعدي: "لما كان المقصود بيان الحق ذكر الله طريقه فقال: (أولم يكفهم) في علمهم بصدقك ، وصدق ما جئت به (أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) وهذا كلام مختصر جامع ، فيه من الآيات البينات والدلائل الباهرات شيء كثير، فإن إتيان الرسول به بمجرده ، وهو أمي من أكبر الآيات على صدقه .

ثم عجزهم عن معارضته ، وتحديهم إياه ، آية أخرى .

ثم ظهوره وبروزه جهرا وعلانية ، يتلى عليهم ، ويقال: هو من عند الله ، قد أظهره الرسول ، وهو في وقت قل فيه أنصاره ، وكثر فيه مخالفوه وأعداؤه ، فلم يخفه ، ولم يثن ذلك عزمه ، بل خرج على رؤوس

الأشهاد ، و نادى به بين الحاضر والباد بأن هذا كلام ربي فهل يقدر أحد على معارضته؟ أو ينطق بمباراته أو يستطيع مجاراته ؟ .

ثم هيمنته على الكتب المتقدمة ، وتصحيحه للصحيح ، ونفي ما

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٤١١) .

أدخل فيها من التحريف والتبديل .

ثم هدايته لسواء السبيل في أمره ونهيه ، فما أمر بشيء فقال العقل: ليته لم يأمر به .

ولا نهى عن شيء ، فقال العقل: ليته لم ينه عنه . بل هو مطابق للعقل والميزان، والحكمة المعقولة ، ثم مسايرة إرشاداته وهداياته وأحكامه لكل حال وكل مكان زمان بحيث لا تصلح الأمور إلا به .

فجميع ذلك ، يكفي من أراد تصديق الحق ، وعمل على طلب الحق ، فلا كفى الله من لم يكفه القرآن ، ولا شفى الله من لم يشفه الفرقان ... الخ"[١].

ثم إن مما استدل به القرآن على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أنه جاءهم بهذا القرآن و نادى على رؤوس الأشهاد أن ائتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سور أو بسوره مثله ، وأعاد عليهم التحدي مرة بعد أخرى ، وهو يقرعهم بذلك ، وينادي عليهم به ، ويطالبهم بالإيمان به أو بمعارضة ما جاء به إن كانوا لا يؤمنون ، وهم في كل مرة يعجزون بل ولا يحاولون ذلك لما انقدح في أذهانهم ووقع في قلوبهم أنه لا يمكن معارضته فقال سبحانه : ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور/ ٣٣-٣٤] .

فإن كانوا يزعمون أن محمدًا ﷺ اختلق القرآن من تلقاء نفسه فليأتوا

(١) تفسير السعدي (ص٥٨٣) باختصار يسير.

من عند أنفسهم بحديث مثله، مادام أنه في مقدور البشر .

ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله فقال تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود/ ١٣] .

ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة فقال سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس/ ٣٧-٣٨] .

وكانت هذه الآيات قد نزلت والرسول صلى الله عليه وسلم بمكة ، ثم لما هاجر إلى المدينة أعاد التحدي مرة أخرى في سورة البقرة وأنزل الله : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة/ ٢٣-٢٤] .

وهذه معجزة أخرى له صلى الله عليه وسلم في هذا الكتاب، وهي إخباره بأنهم لا يفعلون ذلك أبد الدهر، لأنه ليس في مقدور البشر .

فتحديهم وعجز المعاصرين له عن معارضته هذه معجزة، وإخباره أنهم لا يفعلون ذلك ولا من يجيء بعدهم وجزمه بذلك معجزة أخرى[1] .

---

(١) انظر: الجواب الصحيح (٥/ ٤٢٥)

ولقد علم الناس وأصغى العالم – عربهم و عجمهم – من مبعثه صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا لهذا التحدي ولم يستطع أحد ؛ فردا كان أو جماعة أن يأتي بمثله أو قريب منه في حسن نظامه وجودة ألفاظه وعلو مكانته وجلالة ما يدعو إليه ، مع كثرة المعادين ووفرة المناوئين ، ومع ما جبل عليه البشر من حب الظهور والعلو ، فلو كان هذا في مقدور أحد من الخلق لما تأخر عن ذلك وهو يستطيعه ، ولكن صدق الله: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ [البقرة/ ٢٤].

ولقد كان العرب وهم أشد الناس حمية وأكثرهم عصبية لو يستطيعون إلى ذلك سبيلا لما تأخروا عنه أو تباطؤا عن الإتيان بمثله ، كيف وهو يقرعهم وينادي عليهم ، ويعلن بتحديهم في المحافل والمجامع الكبار ، بل أبلغ من ذلك قامت الحروب بينه وبينهم فقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم وقسم أموالهم ، وهو يقول لهم :إيتوا بمثل هذا القرآن المعجز أو آمنوا بما جئت به ما دمتم معترفين بعجزكم، وأن ما جئت به فوق طاقة البشر، وأنه من عند الله تعالى الذي أرسلني إليكم ، وقد كانوا أهل اللسان وأرباب الفصاحة والبيان ، بل لم ينقل عن أحد منهم أنه حاول إلى ذلك سبيلا أو ابتغى إلى ذلك طريقا لما كانوا يعرفون – وهم أهل المعرفة – أنه ليس بمقدورهم الإتيان بمثله أو معارضته .

يقول سبحانه : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلۡ كُلٌّ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ

هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴿٨٤﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾ ﴾ [الإسراء/ ٨٢-٨٩] .

فالقرآن الكريم من أعظم الدلائل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويظهر هذا على سبيل الإجمال وعلى سبيل التفصيل .

أما الإجمال: فإن القرآن الكريم فيه تحدي جميع الأمم أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، أو بعشر سور ، أو بسورة مثله .

وهذا كما سبق تحد لجميع الخلق جنهم و إنسهم ، عربهم و عجمهم ، المعاصرين لنزوله والذين جاؤوا بعد ذلك ، وقد ذاع هذا التحدي وانتشر ، وعلم به العام والخاص ، وكان الكفار أحرص ما يكونون على إبطال دعوته ونقض قوله ، ولو كان في مقدورهم ؛ هم أو غيرهم الإتيان بذلك ما تأخروا عنه .

فهذا مما يورث علما يقينا أن هذا الكتاب العظيم ليس من البشر ، وإنما هو ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

وأما التفصيل: فما في القرآن من أوجه الإعجاز المتعددة ؛ في البلاغة والفصاحة وحسن النظم وعلو المعاني وغير ذلك من أوجه الإعجاز .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهذه الأمور – وجوه إعجاز القرآن – من ظهرت له من أهل العلم والمعرفة ظهر له إعجازه من هذا الوجه، ومن لم يظهر له ذلك اكتفى بالأمر الظاهر الذي يظهر له ولأمثاله، كعجز جميع الخلق عن الإتيان بمثله مع تحدي النبي وإخباره بعجزهم، فإن هذا أمر ظاهر لكل أحد.

ودلائل النبوة من جنس دلائل الربوبية، فيها الظاهر البين لكل أحد ... وفيها ما يختص به من عرفه ... فإن الخلق كلهم محتاجون إلى الإقرار بالخلق والإقرار برسله، وما اشتدت الحاجة إليه في الدين والدنيا فإن الله يجود به على عباده جودا عاما ميسرا."أهـ[١].

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٤٣٥)

المبحث الثامن: اشتمال القرآن على التوحيد، وما يصلح الخلق.

الكلام هنا فرع عن الكلام في المبحث السابق، وإنما أفردته بمبحث مستقل لأمور، منها:

- أهميته وعظيم العناية به.
- أن كثيرا من الناس يغفل عن هذا الجانب العظيم من جوانب إعجاز القرآن وعظمته.
- ولذلك تراهم يطلبون الهدى في هذه المسائل من غير القرآن؛ إما من أصول أصولها أو دلائل عقلية يرون أنها قطعية دون النصوص.
- أن التوحيد وإثبات ما يجب لله تعالى من الأسماء الحسنى والصفات العلى هو أجل مقاصد القرآن وأعظم أغراضه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " طرق العلم بالرسالة كثيرة جدا، ونحن اليوم إذا علمنا بالتواتر أحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم علمنا علما يقينا أنهم كانوا صادقين على الحق من وجوه متعددة ...

ومن الطرق: أن من تأمل ما جاء به الرسل عليهم السلام – فيما أخبرت به وما أمرت به – علم بالضرورة أن مثل هذا لا يصدر إلا من أعلم الناس وأصدقهم وأبرهم. وأن مثل هذا يمتنع صدوره من كاذب متعمد للكذب مفتر على الله يخبر عنه بالكذب الصريح، أو مخطئ جاهل

ضال ؛ يظن أن الله تعالى أرسله ولم يرسله، وذلك لأن فيما أخبروا به وما أمروا به من الإحكام والإتقان وكشف الحقائق وهدى الخلائق، وبيان ما يعلمه العقل جملة ويعجز عن معرفته تفصيلا ما يبين أنهم من العلم والمعرفة والخبرة في الغاية التي باينوا بها أعلم الخلق ممن سواهم ... الخ"[١].

إن مما هو معلوم لكل من تدبر بإنصاف أن ما جاءت به الرسل عليهم السلام من الهدى والنور والأوامر والزواجر في الشرائع والعقائد لا يمكن لأحد من المخلوقين أن يأتي به من تلقاء نفسه ذلك أنه وحي من الحكيم الحميد الذي يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير جل وعلا [٢].

ثم إن ما جاء به القرآن الكريم أعظم مما جاءت به سائر الكتب السماوية، إذ ليس ما في الكتب مماثلا لما في القرآن من المعاني والأحكام والهدايات لا في الحقيقة ولا في الكيفية ولا الكمية [٣].

لقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم بهذا الكتاب العظيم هدى ونورا للناس، يسعدون به وتصلح أحوالهم في العاجل والآجل، وكل طريق إلى الله تعالى، وإلى سعادة الدارين من غير هذا الكتاب فإنها طريق غير موصلة.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء/ ٩].

---

(١) شرح الأصفهانية (ص ١٠٤-١٠٥).

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص١٥٣)

(٣) راجع (ص ٢٦)

فهذا القرآن يرشد ويدل لما هو أعدل وأعلى وأسد وأنفع من العقائد والأعمال والأخلاق والشرائع (١).

إن معرفة ما جاء به القرآن العظيم وما دعا إليه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم طريق سديد لمعرفة صدقه وصحة ما جاء به وأنه رسول من عند الله تعالى، وبهذا استدل القرآن على نبوته صلى الله عليه وسلم .

ولقد كان هذا الطريق من الطرق التي استدل بها هرقل – عظيم الروم – على صدق النبي صلى الله عليه وسلم وأنه رسول من عند الله تعالى، ففي حديث أبي سفيان الطويل أن هرقل سأل أبا سفيان: بم يأمركم؟ قال: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة (٢).

لقد أكد القرآن الكريم في مواضع كثيرة على عظمة ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وما أوحي إليه في الكتاب العزيز من الهدى والنور والبينات والفرقان .

يقول سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة / ١-٢].

ويقول تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٤٥)

تفسير أضواء البيان (٣/ ٤٠٩-٤٥٧) .

(٢) سبق تخريجه (ص٢٣) . وانظر كلام الحافظ ابن حجر في فتح الباري على هذا الحديث فإنه نفيس (١/ ٣١).

وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة/ ١٨٥] .

ويقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء / ١٧٤].

ويقول سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة / ١٥- ١٦] .

ويقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[الأعراف / ٥٢] .

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يونس / ٣٧] .

فغير ممكن ولا متصور أن يكون هذا الكتاب بما فيه من الإحكام والأحكام مختلقٌ، وأن يكون من جاء به كذب في نسبته إلى الله تعالى، ومن أجلى الأدلة على استحالة هذا الأمر ما فيه من تصديق الرسل السابقين عليهم السلام وما جاء به من تفصيل للأحكام والشرائع والعقائد التي تدل بلا شك ولا مرية أنه تنزيل رب العالمين .

ويقول تعالى: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ [هود / ١].

أي: أتقنت وأحسنت، وإتقانها في ألفاظها ومعانيها وما دعت إليه

وما جاءت به(1).

ويقول تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود / ١٣-١٤].

ففي هذه الآيات تحدي المكذبين أن يعارضوا القرآن أو يأتوا بمثله هم ومن يظاهرهم ويعاونهم، " ثم قال تعالى: (فإن لم يستجيبوا لكم) أي: فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتموهم إليه فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله، متضمن علمه وأمره ونهيه(2). ﴿وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ "(3).

ونلحظ كيف جاء ذكر ما في القرآن من الحقائق والشرائع التي لا يمكن أن تكون إلا من عند الله تعالى في معرض الاستدلال على إعجازه، وصدق نبوة من جاء به صلى الله عليه وسلم، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

---

(١) انظر: تفسير السعدي (ص٢٣٢)

(٢) ذكر المفسرون في هذه الآية قولين :

أ – ما ذكره الحافظ ابن كثير أعلاه، وهو أن المراد: أنزله وفيه علمه .

ب– أنزله وهو عالم بإنزاله .

انظر: معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤٢)، تفسير البغوي (٤/ ١٦٥)، زاد المسير٠ (٤/ ٣٨) ، تفسير ابن كثير (٥/ ١٢٥) فتح القدير (٢/ ٤٨٦-٤٨٧)،

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤٤)

يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [النحل / ١٠١-١٠٢] .

فلما ادعى هؤلاء المكذبون أن النبي صلى الله عليه وسلم قد افترى هذا القرآن من تلقاء نفسه جاء الرد عليهم بأنه منزل من عند الله وأن من جاء به رسول الله، والدليل على ذلك اشتماله على الحق الذي لا يلتبس، والنور الذي لا تعشى عنه إلا أبصار المعاندين .

قال السعدي: "﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: نزوله من عند الله بالحق،وهو مشتمل على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه، فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه قدحا صحيحا ؛ لأنه إذا علم أنه الحق علم أن ما عارضه وناقضه باطل" [1]. أهـ.

ويقول سبحانه: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿١٠٥﴾ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الإسراء / ١٠٥-١٠٦].

يقول ابن كثير: " يقول سبحانه مخبرا عن كتابه العزيز، وهو القرآن المجيد، أنه بالحق نزل، أي متضمنا للحق، قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾ [النساء/ ١٦٦] أي: متضمنا علم الله الذي أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه .

وقوله: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: ووصل إليك يا محمد محفوظا محروسا،

(١) تفسير السعدي (ص٤٠١)

لم يشب بغيره،ولا زيد فيه، ولا نقص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القوى، الأمين المكين المطاع في الملأ الأعلى " [(1)]. أهـ

ويقول سبحانه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾ [الأنبياء/ ١٠].

فهذا الكتاب العظيم فيه دينكم [(2)]، وتذكير لكم فيما ينفعكم في العاجل والآجل[(3)]، وختمت الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: ألا تستخدمون عقولكم لتعرفوا ما فيه من الحق، وما دل عليه من الهدى فتعلموا صدق من جاء به وأنه رسول من عند الله تعالى .

وهذه الآية من صدر سورة الأنبياء جاءت في معرض محاجة المكذبين الذي جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكذبوا رسالته، وأنكروا أن يكون الله تعالى قد بعثه إليهم ؛ فكانوا يستمعون الذكر ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء / ٢]، متهمين النبي صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر، فقالوا لسفهاء قومهم: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء/ ٣]، واتهموه

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ١٢٥)

(٢) قاله الحسن . انظر: تفسير الطبري (١٧/ ٦)

(٣) هذه الآية الكريمة وما شابهها كقوله تعالى: (وإنه لذكر لك ولقومك) الزخرف / ٤٤ ، للمفسرين فيها قولان:

الأول: ذكر لكم: أي تذكير لكم تتذكرون فيه وتهتدون.

الثاني: ذكر لكم: أي شرف لكم.

وعبارة بعض المفسرين تفيد جمعه بين القولين . انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٣٢٧)(٧/ ٢١٦) تفسير السعدي (ص٤٦٨، ٧٠٠)

بأنه شاعر قد افترى هذا القرآن ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ﴾ [الأنبياء / ٥]، فجاء الرد عليهم بأنه قد جاءكم بكتاب فيه ما ينفعكم في العاجل والآجل وهذا لا يستقيم مع سيرة الساحر والشاعر الكذاب، كما أنه قد جاءكم بشيء يعجز عن مثله البشر، فأين يُذهب بعقولكم ؟ .

وهكذا نلحظ كيف يجيء الاستدلال بمضمون ما جاء في القرآن الكريم على صدق النبي صلى الله عليه وسلم وصحة رسالته .

ولقد وصف الله تعالى كتابه في مواضع متعددة من كتابه بأنه (هدى) كما قال سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة / ١-٢].

وقال سبحانه: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف/ ٢٠٣].

وقال سبحانه: ﴿ الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣﴾ [لقمان/ ١-٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾ [فصلت / ٤٤] .

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢﴾ [الشورى / ٥٢] .

فسماه تعالى روحا ونورا يهدي به من يشاء ؛ لأن الروح تحيا به

الجسد، وكذلك القرآن تحيا به القلوب والأرواح، لما فيه من تحصيل مصالح الدنيا والآخرة،

" فالوحي حياة الروح، كما أن الروح حياة البدن، ولهذا من فقد الروح فقد الحياة النافعة في الدنيا والآخرة . أما في الدنيا : فحياته حياة البهائم، وله المعيشة الضنك، وأما في الآخرة : فله جهنم لا يموت فيها ولا يحيا "[1].

فليس سر إعجاز القرآن فقط في بلوغه الرتبة العليا في الفصاحة والبلاغة، وجودة النظم وحسن اختيار الألفاظ والتراكيب، وإنما فيما جاء به من النور والهداية التي لا تصلح أحوال الناس في معاشهم ومعادهم إلا به، لأن الذي خلقهم – وهو أعلم بهم – هو الذي أنزله تبيانا لكل شيء .

وعظمة ما جاء به القرآن تأتي من وجوه متعددة، منها: أنه حق لا يلتبس بالباطل، وصدق لا يتسلل إليه الكذب، وهذا كتاب الله قد مضى على إنزاله أكثر من أربعة عشر قرنا لم تثبت الوقائع ولا الدراسات ولا البراهين خطأ شيء منه أو ضلال بعض ما جاء فيه، بل لا يزيده مر الأيام إلا جلاء، ولا يضيف إليه إتيان الليالي إلا ثباتا وضياء، كما قال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت / ٥٣].

أي سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقا منزلا من عند

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢٥٨)، وانظر: إغاثة اللهفان (١/ ٢٠)

الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم بدلائل في الأفاق وفي أنفسهم[١].

والله تعالى هو الحق ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج / ٦٢] ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [يونس / ٣٢] وفعله حق ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الروم/ ٨].

وقوله تعالى حق، وكتابه حق، وقد جاء بالحق : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس / ١٠٨] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ [الرعد/ ١] وقال سبحانه: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾ [السجدة / ١-٣] وقال سبحانه : ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [فاطر / ٣١] وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد / ١٦].

فكتاب الله هو من عند الله حقا، وهو حق وقد جاء بالحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ومن ذلك أنه لا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض ولا تضاد، ولا يكذب بعضه بعضا بل يؤيده ويصدقه، سواء في ذلك الأخبار أو الأحكام،

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ١٧٥)، الجواب الصحيح (٥/ ٤٠٥ - ٤٠٨).

يقـول سـبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء / ٨٢].

فحث تعالى على تدبر القرآن وإمعان النظر فيه إذ هو طريق لزيادة اليقين في القلب، وترسيخ الإيمان في الفؤاد حيث يتبين للمرء أنه من عند الله الذي قد أحاط بكل شيء علما، ولا يمكن أن يأتي بمثله البشر .

وسبحان الله فإن كلام المخلوقين إذا أعدت النظر فيه تبين لك مكامن النقص والخلل فيه، وازداد نقدك له، أما كلام الباري جل وعلا فإنه لا يزيدك التدبر فيه وترداد تلاوته إلا يقينا بمصدره وإيمانا بمنزله تعالى إذ ينكشف لك في كل مرة من جوانب عظمته ما لم يكن قد تبين لك أول مرة .

ولذا قال تعالى في الآية: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء / ٨٢] .

يقول السعدي " ومن فوائد التدبر لكتاب الله : أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله ؛ لأنه يراه يصدق بعضه بعضا، ويوافق بعضه بعضا، فترى الحكم والقصة والأخبار تعاد في القرآن في عدة مواضع كلها متوافقة متصادقة لا ينقض بعضها بعضا فبذلك يعلم كمال القرآن، وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور، فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ أي: فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلا ." [(١)] أهـ.

---

(١) تفسير السعدي (ص١٥٤).

إن الهدي الذي جاء به القرآن في شموله وثباته وواقعيته، وصلاحيته لكل زمان ومكان، وتلبيته لسائر احتياجات البشر الروحية والجسدية، في توازن محكم واعتدال منضبط، فلا يسمو بالروح مقابل ظلم الجسد، كما لا يحيف على الروح لترفيه الجسد .. إن هذا الهدي العلمي والعملي .. في العقائد والشرائع والمنهاج لمن أعظم الدلائل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم في نبوته، إذ هذه الشريعة من الإحكام والإتقان والكمال بحيث لا يقدر عليها أحد إلا أن يكون نبيا يأتيه الوحي من الله جل وعلا .

المبحث التاسع: نصره وتأييده وعصمته من الناس .

جاء القرآن الكريم مقررا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بدلالته على حفظه وعصمته من الناس مع جدهم في الإيقاع به، وحرصهم على النيل منه، حيث وعد تعالى بحفظ نبيه وحمايته فلا ينال أعداؤه منه، ولا يصلون إليه كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة:١٣٧] .

وجاء الوعد بالكفاية مقترنا بالسين (فسيكفيكهم) لتحقيق وعد الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه يكفيه شرهم وسوء شقاقهم [(١)].

ويقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة:٦٧].

" أي بلغ أنت رسالتي، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك، ومظفرك بهم ؛فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك " [(٢)].

إن الذي يقوم لدعوة الخلق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابد

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (١/ ٧٤١) .

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ١٤٣).

أن يواجه من الكافرين والجاحدين، ولذا أمر الله تعالى بالصبر في مثل قوله سبحانه : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر:١-٣].

وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان:١٧].

إن الكفرة والمشركين لابد أن يعادوا الأنبياء والرسل عليهم السلام وخصوصا أهل الرياسة والجاه منهم، وان يقفوا في طريق دعوتهم، ويكيدوا لهم بكل سبيل وهي سنة من سنن الصراع بين الحق والباطل كما قال ورقة بن نوفل لما جاءه النبي صلى الله عليه وسلم مع خديجة حين نزل عليه الوحي في غار حراء : " ليتني فيها جذع... حين يخرجك قومك قال : أو مخرجي هم ؟ قال: نعم، إنه لا يأتي أحد بمثل ما جئت به إلا عودي "[١].

ولما كان الأمر على هذا النحو وعد الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالحفظ والعصمة من كيد الكفار والمعتدين، وأكد هذا المعنى في الآية بعدد من المؤكدات :

١- الجملة الاسمية التي تفيد الاستمرار .

٢- التعبير عن الخبر بالجملة الفعلية التي تفيد التجدد والحدوث، فالله تعالى يعصمك مرة بعد أخرى، ويكلؤك بحفظه كلما كادك أعداؤك .

---

(١) سبق تخريجه (ص ٢٨).

٣- الابتداء باسم الجلالة بما فيه من التفخيم والتعظيم، فهو سبحانه الذي يتولى عصمتك دون أن يكلك إلى أحد سواه، ثم هو يعصمك (من الناس) فماذا ترى يصنع الناس الضعفاء أمام قوة الله وقدرته جل وعلا .

إن المقابلة في أول الجملة وآخرها بين متولي العصمة (الله) ومن ستعصم منهم .

(الناس) يظهر عظمة الركن الذي يأوي إليه الرسول صلى الله عليه وسلم، وجلالة الملجأ الذي يلوذ به .

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ فقال: " يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله عز وجل" [(١)].

ويقول سبحانه في بيان حفظه لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٦﴾ [الزمر:٣٦] .

وهذه الآية جاءت بعد قوله: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر / ٣٢].

فإذا كان لا أحد أعظم ذنبا، ولا أشد فرية ممن كذب على الله، ومن

---

(١) رواه الترمذي، كتاب التفسير، تفسير سورة المائدة (٨/ ٤١٠ تحفة الأحوذي)والطبري (١٠/ ٤٦٩)، والحاكم، كتاب التفسير (٢/ ٣١٣) وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه .
وانظر: تفسير ابن كثير(٣/ ١٤٥) فقد ذكر عددا من مظاهر حفظ الله لرسوله صلى الله عليه وسلم، والأسباب التي خلقها سبحانه لذلك .

ذلك – بل من أعظمه – أن يزعم أن الله أرسله نبيا وليس كذلك، ومن كان على هذا النحو فإن الله يهلكه وينتقم منه، ثم قال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ فهو عبده حقا ورسوله صدقا ليس بكاذب ولا مفتر فالكاذب يُهلك، والصادق يُحفظ ويُكفى، وهي سنة الله في أنبيائه ورسله عليهم السلام .

فإن كان محمد صلى الله عليه وسلم كاذبا في دعواه النبوة، مفتر للقرآن من تلقاء نفسه، فليُكَذِّب أعداؤه هذه الآيات التي في القرآن، وليأتوا بخيلهم ورجلهم فينالوا منه أو يصلوا إليه .

لقد كان أعداؤه صلى الله عليه وسلم من مشركي العرب والمنافقين وقبائل اليهود وسائر أهل الكتاب أشد ما يكونون حنقا عليه، وأعظم ما يكونون غيظا منه، وودوا لو أنهم وصلوا إليه بأي سبيل، ولقد سعوا في ذلك وبذلوا ما يستطيعون ولكن عين الله ترعاه، وحفظ الله يكلؤه، وكيف يستطيع المخلوق الضعيف أن ينال ممن وعد الخالق العظيم القدير بكفايته وعصمته وحفظه .

هذا وكما استدل القرآن الكريم على نبوته ﷺ بحفظه وعصمته من أعدائه؛ فقد استدل أيضًا بنصره عليهم وإظهاره ، وهي سنة الله تعالى في أنبيائه ورسله عليهم السلام كما قال سبحانه : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر/ ٥١].

ويقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ

لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات / ١٧١-١٧٣] .

ويقول تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة / ٢١] .

وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود/ ٤٩].

فأخبر تعالى في هذه الآيات وأمثالها أن سنته المستقرة هي نصر رسله وأوليائه وظهورهم على أعدائهم وأن تكون لهم الغلبة، وأكد هذا الأمر عناية به بعدد من المؤكدات كـ (إن) واللام في الآية الأولى، والقسم و (إن) واللام، والجملة الاسمية، وتعريف المسند في الآية الثانية .

وفي الآية الثالثة إخباره أنه كتب هذا الأمر فهو أمر قد قضي، وعطف الرسل عليه جل وعلا في الوعد بالغلبة، مع ما في الجملة من القسم المضمر واللام الموطئة والنون المشددة، ثم ختام الآية بقوله (إن الله لقوي عزيز) تأكيد لمضمون الجملة، وإشعار بالتعليل لما جاء فيها .

فإذا كانت هذه سنته في رسله وأنبيائه . فما حصل لمحمد صلى الله عليه وسلم من الظهور والنصر دليل على أنه رسول من عند الله ليس بكاذب ولا مفتر، يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفتح / ٢٢-٢٣] " فأخبر أن سنة الله التي لا تبديل لها نصر المؤمنين على الكافرين "[١].

---

(١) الجواب الصحيح (٦/ ٤١٩)

وهذه السنة التي أخبر عنها الكتاب العزيز يعرفها أهل الكتاب مما تلقوه من رسلهم

ولذا قال هرقل: " كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة " (١).

كما عرفت هذه السنة من واقع الناس وحياتهم، فلقد أهلك الله قوم نوح، ونجاه ونصره عليهم ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنبياء / ٧٧].

ونصر هودًا وصالحًا وإبراهيم ولوطًا وإخوانهم، وأهلك أقوامهم المكذبين، وتلك آثار القوم المكذبين في الأرض معلومة يشاهدها الناس ويمرون عليها ويعرفونها، وقد لفت الله تعالى أنظار الخلق إليها، وأمرهم بالسير في الأرض للاعتبار بما حل بهم فقال سبحانه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج / ٤٢-٤٦] .

وقال سبحانه: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ

(١) سبق تخريجه (ص ١٧)

وانظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٤٩)

عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [غافر / ٢١-٢٢] .

ولما ذكر قصة قوم لوط قال سبحانه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات / ١٣٧-١٣٨] وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَـٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الحجر/ ٧٥-٧٩] .

فالمقصود أن سنة الله تعالى في أوليائه أنه ينصرهم ويظهرهم على عدوهم، فإذا أيد محمدا صلى الله عليه وسلم علمنا أنه منهم، سيما إذا علمنا أحواله، وما دعا إليه، وما جاء به .

ولو فرضنا أنه كاذب في دعواه – حاشاه صلى الله عليه وسلم – فإن الله تعالى أخبر في القرآن أنه ينصره ويؤيده – كما هي عادته في رسله – ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر / ٥١].

أقول: لو فرض أنه كاذب فلينل الأعداء منه إن كانوا صادقين، وليسعوا في هزيمة دينه إن كانوا على شيء .

وقد قص الله تعالى في الكتاب العزيز عددا من المشاهد التي نصر فيها رسوله صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه كقوله تعالى في الهجرة: ﴿إِلَّا

تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة/ ٤٠].

وقوله تعالى في غزوة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنفال / ٩] .

وقوله جل وعلا: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الأنفال / ١٢] .

وقوله سبحانه في غزوة الخندق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ ﴾ [الأحزاب / ٩] .

وقوله سبحانه في غزوة حنين: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [التوبة / ٢٦] .

ومما يزيد هذا الأمر ظهورا ما أشار إليه القرآن الكريم وأوضحته الشواهد من أن الله تعالى لا يؤيد المفترين الكاذبين الظالمين، وأي افتراء وظلم أعظم من الفرية على الله جل وعلا، يقول سبحانه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحاقة / ٣٨-٤٦].

فهذا الرسول – صلى الله عليه وسلم – صادق فيما جاء به ؛ فليس بشاعر ولا كاهن بل هو من رب العالمين، وتقتضي ربوبيته لهم أن ينزل هذا الكتاب الهادي، ويرسل هذا الرسول البشير، ولا يترك عباده هملا، وإنما من ربوبيته لهم ورحمته بهم أن يدلهم على ما ينفعهم، وحاجتهم إلى الكتاب المنزل والنبي المرسل أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب الذي لا تقوم الأجساد إلا به، بل وأعظم من حاجتهم إلى النَفَس .

ولو أن محمدا صلى الله عليه وسلم تقول هذا الكتاب من عنده، و افتراه على ربه لعاجله بالانتقام، فأخذه بقوة منه تعالى وقدرة، وقطع منه نياط القلب، قال الطبري:" وإنما كان يعني بذلك أنه كان يعاجله بالعقوبة، ولا يؤخره بها "[1] ؛ إذ هو تعالى عزيز حكيم لا يترك عباده يقوم فيهم من يضلهم عن سبيله، ويزعم أن الله أرسله، وأنزل عليه كتابا من عنده، وهو مع ذلك يؤيده وينصره، ويمكن له ممن عاداه أو كذب به[2]، يقول سبحانه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام/ ١٤٤] .

قال ابن الجوزي " قال ابن عقيل: ومن أكبر الدلائل على صدق نبينا صلى الله عليه وسلم أن الباري سبحانه إنما يمهل الكذاب يسيرا ثم يستأصله بالعذاب، أفيجوز أن يمهل من يكذب عليه سنين ثم يثبت

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٢٤٣) . وانظر: الدر المنثور (١٤/ ٦٨٤)

(٢) انظر: تفسير السعدي (ص٨١٩)

شريعته بعده ؟ وقد أقدم على نسخ شريعتين قبله، وحلل السبت، ثم ينصر أتباعه على الأمم، ويؤيد حكمته بالإعجاز !!

حاشاه أن يفعل ذلك، إذ لو فعله لم يتبين الصدق من المحال، ألم تسمعه تعالى يقول: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝﴾ [الحاقة / ٤٤-٤٥].

فمن طعن في صدقه طعن في عدل الباري وحكمته، لأن الطعن يتوجه على المعين " [١].

إن الكذاب لا يجري على يديه آية لا معارض لها لأن هذا من خصائص آيات الأنبياء إذ في ذلك إضلال للخلق، ولبس الحق بالباطل [٢].

بل من قام من هؤلاء الكذابين المدعين للنبوة فإنه يعلم من حاله، وما يدعو إليه، وما يجري على يديه لكل ذي بصيرة أنه كذاب مفتر أو ساحر دجال .

إن من نظر إلى حال الكاذب المفتري، وحبه للدنيا، ودعوته إلى نفسه، وما يتصف به من الصفات السيئة، والأخلاق الخبيثة مما لا يستقيم مع دعوى النبوة، ثم ما يدعو إليه من الفجور والإثم والفواحش، واستحلال الحرام المعلوم في كل الشرائع، وما يجري على يديه مما هو من جنس الشعوذة والسحر، لا من جنس معجزات الأنبياء التي تمتاز بأنها غير معتادة ولا

(١) الوفاء بأحوال المصطفى (١/ ٥٢٤) . وانظر: الجواب الصحيح (٦/ ٤١٩)، وشرح العقيدة الطحاوية (ص ١٥٣)

(٢) انظر: النبوات (١/ ١٩٧)

يمكن معارضتها ليدرك أنه ليس من الأنبياء، بل من أعدائهم [(١)].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " وما من أحد ادعى النبوة من المكذبين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز ." أهـ [(٢)].

ثم بعد ذلك كله فإن الله لا يمكن له في الأرض، حتى ولو تمكن نوع تمكن أول الأمر كما جرى لمسيلمة والأسود العنسي ونحوهم ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ [الحاقة / ٤٤-٤٦].

ويقول تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء / ٧٣-٧٥].

إن مجرد الركون إلى هؤلاء المشركين – ولو كان شيئا قليلا – يعاقب عليه بضعف الحياة وضعف الممات [(٣)]. فكيف بأن يقوم في الناس كاذبا

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٤١)

(٢) شرح الأصفهانية (ص٨٩)

(٣) قال ابن عباس رضي الله عنهما: " قوله: (ضعف الحياة وضعف الممات) يعني ضعف عذاب الدنيا والآخرة ." أخرجه الطبري (١٥/ ١٦)

وإنما كان العذاب مضاعفاً لو ركن صلى الله عليه وسلم لتمام نعمة الله عليه، وكمال علمه ومعرفته .

قال الشوكاني: " وقد ثبت في الشريعة في غير موضع أن تضاعف الشرف وارتفاع الدرجات =

مدعيا أن الله أرسله إليهم، مختلقا كتابا من عنده يقول: هذا كتاب الله . ثم يقاتل الناس على هذه الدعوة الكاذبة والافتراء الآثم فيقتلهم ويأخذ أموالهم، وهو يزعم أن الله يؤيده .. والله تعالى مع كل هذا الفجور والكفر والافتراء – بحكمته ورحمته وعدله وقدرته – يؤيده وينصره،ويبسط له في الأرض، ويمكن له من رقاب من عاداه أو كذبه، ولا يظهر على مدى الأعوام والقرون ما تنفضح به دعواه ويتبين به كذبه .. لله تعالى أحكم وأرحم جل وعلا .

وأي ظلم أعظم من ظلم هذا الكذاب، وأي بغي أشد من بغيه، والله تعالى قد بين أنه ﴿ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ وهو تعالى ﴿ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ و ﴿ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل/ ١١٦].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " إنه – تعالى – لا يؤيد كذابا بالمعجزة لا معارض لها ؛ لأن في ذلك من الفساد والضرر بالعباد ما تمنعه رحمته، وفيه من سوء العاقبة ما تمنعه حكمته، وفيه من نقص سنته المعروفة وعاداته المطردة ما تعلم به مشيئته.... الخ"[1].

= يوجب لصاحبه إذا عصى تضاعف العقوبات ." أهـ فتح القدير (٤/ ٢٧٦)

قلت: ومنه قوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ الأحزاب / ٣٠

(١) شرح الأصفهانية (ص١٦٠)

وكذا وقعت الجملة الأخيرة في طبعة الكتاب ، ولعل فيها تحريفا، وقد يكون صوابها :

=

يقـــول ســـبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام / ٩٣].

وقد جاءت هذه الآية بعد قصة إبراهيم عليه السلام ومحاجته قومه، وظهوره عليهم ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ

= وفيه من نقض سنته المعروفة وعادته المطردة ما تمنعه مشيئته . والله أعلم

عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ [لأنعام / ٧٣/ ٨٣].

ثم ذكر الأنبياء من ذريته وغيرهم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنعام / ٨٤-٨٧] .

وبين تعالى أنه هداهم إلى صراط مستقيم، واضح موصل للمقصود، ولو مالوا عنه أو انحرفوا ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام / ٨٨] .

ثم بين تعالى أنه أنزل هذا الكتاب، ووصفه بصفتين تدلان أنه من عند الله تعالى:

الأولى: أنه ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ فما فيه وما يدعو إليه، وما يدل عليه: خير وهدى ورشد، وبركته ورحمته تنال من آمن به، واتبعه، وعمل بما فيه .

الثانية: أنه ﴿ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ فهو يؤيد ما جاء به الأنبياء قبله، ويدعو إلى ما دعوا إليه .

ثم بين تعالى أنه لا أظلم ممن يفتري الكذب على الله، ويزعم أن الله أوحى إليه شيئا، ولم يوح إليه، وهذا مما يدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم وصحة رسالته لأنه لو كان كاذبا لكان ظالما، بل من أعظم الظالمين،

ومن كان كذلك فإنه لا يؤيد ولا يمكن له، وهذا محمد صلى الله عليه وسلم مؤيد منصور، ظاهر على أعدائه بالحجة والبيان، والسلاح والسنان .

وبعد: فكل ما سبق من إخبارات الكتاب العزيز ودلائله هي من الشواهد على صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وثمة وجه آخر يدل على نبوته صلى الله عليه وسلم في هذه الآيات والأخبار، وهو أن الأمر وقع كما أخبر، وكان كما قص الكتاب العزيز، فلقد انتصر على أعدائه، وبسط سلطان دينه على الأرض، ودخل الناس في دين الله أفواجا .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " طرق العلم بالرسالة كثيرة متنوعة ... منها:

أنهم – أي الرسل – أخبروا الأمم بما سيكون من انتصارهم، وخذلان أولئك، وبقاء العاقبة لهم أخبارا كثيرة في أمور كثيرة، وهي كلها صادقة، لم يقع في شيء منها تخلف ولا غلط ... الخ" [(١)].

(١) شرح الأصفهانية (ص١٠٤)

وانظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص١٥٢)

المبحث العاشر: دلالة القرآن على حسن خلقه ﷺ ورفيع صفاته .

اصطفى الله تعالى من خلقه رسلا لتبليغ رسالته، ودعوة الناس إلى توحيده وعبادته، والنبوة اصطفاء من الله تعالى، والرسالة اجتباء منه جل وعلا ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ [الحج/ ٧٥] وإنما يختار الله تعالى لرسالته صفوته من خلقه وخيرته من عباده .

أحسن الناس خلقا، وأرفعهم أدبا، وأجملهم سيرة، وأزكاهم سريرة، وأعظمهم عبودية لمولاهم سبحانه وتعالى .

إذ هم رسل الله والمبلغون هدايته، والمكلفون بدعوة الخلق إلى الحق جل وعلا، ودعوتهم إنما تكمل وتجمل إذا تواطأ عليها القول والعمل، واتفق فيها لسان الحال مع لسان المقال .

فما عليه الأنبياء والرسل عليهم السلام من الصفات الحسنة والأخلاق الحميدة يعود إلى أمور منها:

- أن النبوة اصطفاء من الله، والله تعالى إنما يصطفي لنبوته أزكى خلقه وأكملهم .
- أنهم إذا كانوا على هذا النحو كان أتم لدعوتهم، وأكمل لتبليغهم، وأعظم لقيامهم بالمهمة الموكلة إليهم .
- أنه دليل على نبوتهم، وصدق رسالتهم، وأنهم مبعوثون من عند الله تعالى .

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين

وأفضلهم وسيدهم، كما قال صلى الله عليه وسلم: " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة "[١] وهو في الرتبة العليا في الفضائل والكمالات، والأخلاق الزاكية الحسنة وهذا من أعظم الدلائل والبراهين على أنه رسول رب العالمين، كيف لا وقد تولى ربه جل وعلا تأديبه فأحسنه[٢] يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : "سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته..."[١].

ولقد كان ما هو عليه صلى الله عليه وسلم من الآداب الرفيعة والشمائل الطيبة أحد الدلائل التي ساقها القرآن لتقرير نبوته صلى الله عليه وسلم والاحتجاج لصدقه إذ الكاذب المفتري، والساحر الدجال، والظالم الغشوم لابد أن يظهر عليه من الأخلاق السيئة والصفات الرديئة كالظلم والكذب والفحش والأذى وأكل أموال الناس بالباطل والكبر وحب الدنيا وطلب الرياسة ما يناسب حاله، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز." [٢] . أهـ.

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) روي في الحديث قوله: "أدبني ربي فأحسن تأديبي " . قال ابن تيمية: " معناه صحيح، ولكن لا يعرف له اسناد ثابت " أهـ مجموعة الرسائل الكبرى (٢/ ٣٣٦) نقلاً عن السلسلة الضعيفة (١/ ١٠١). وضعفه جمع من المحققين .

انظر: كشف الخفاء (١/ ٧٢)

(١) شرح الأصفهانية(ص ٨٩).

(٢) المرجع السابق (الموضع نفسه).

أما هو صلى الله عليه وسلم فقد كان له من كل كمال بشري أعلاه، ومن كل شأن رفيع أزكاه، ولست هنا بصدد تعداد صفاته الحسنة وأخلاقه الطيبة الزاكية، فقد حفلت كتب السيرة والشمائل والآثار بجمع ما يتعلق في هذا الباب [1]، وتعداد ما اتصف به صلى الله عليه وسلم وما كان عليه من المناقب، ولكني هنا أشير إلى استدلال القرآن الكريم بهذا الجانب على نبوته وصدق رسالته، يقول السعدي :" يقرر – القرآن – نبوته ورسالته صلى الله عليه وسلم بما جمع له وكمله به من أوصاف الكمال، وما هو عليه من الأخلاق الجميلة، وأن كل خلق عالٍ سامٍ فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلاه وأكمله، فمن عظمت صفاته، وفاقت نعوته جميع الخلق التي أعلاها الصدق والأمانة أليس هذا من أكبر الدلائل على أنه رسول رب العالمين، والمصطفى المختار من الخلق أجمعين ؟ " [2] .

يقول تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم / ٤].

وهذه الآية من صدر سورة القلم التي كان الموضوع الأول فيها تثبيت رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، والاحتجاج لنبوته والاستدلال لصدقه، حيث يقول تعالى: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن

(١)انظر– مثلاً – كتاب المناقب من صحيح البخاري، كتاب الفضائل من صحيح مسلم، كتاب شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم للترمذي .

(٢) القواعد الحسان (ص٢١).

ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [القلم / ١ – ٨] .

فأقسم تعالى بالقلم وما يكتبون على رد فرية المشركين حين اتهموا رسوله بالجنون كما قال سبحانه عنهم في آخر السورة: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [القلم / ٥١] فقال سبحانه هنا في أول السورة: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ﴾ [القلم / ٢] ثم ذكر سبحانه أنه متصف بخلق عظيم، وهذا ينافي وصف الجنون الذي زعمه هؤلاء المشركون، وهي – لعمر الله – شكاة ظاهر عنك عارها .

وإلا فهل يقول أحد يحترم عقله أن محمدا صلى الله عليه وسلم مجنون، وهو النبي الذي دان له قومه، واعترفوا بفضله وصدقه واستقامته وخلقه وعقله حتى قبل أن يوحى إليه، وهو النبي الذي جاء بشريعة وهدي لم يطرق العالم مثله ؛ خيرا وهدى ورحمة وتسامحا، ولكن الأمر كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " ولم ينقل عن أحد منهم (المشركين) أنه قال قولا (يتهم به النبي صلى الله عليه وسلم) يخفى بطلانه، بل ما يظهر كذبه لكل أحد " (١).

إنه الحقد الأعمى والحسد الآثم الذي يعمي ويصم، فيبلغ بصاحبه أن يقول قولة هو أول من يدرك أنها كاذبة .

---

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٣٣٢-٣٣٣)

والمقصود أن الله تعالى رد فرية هؤلاء الكفار، مؤكدا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ .

عن سعد بن هشام بن عامر في قول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم / ٤] قال: سألت عائشة رضي الله عنها يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت: أتقرأ القرآن ؟ فقلت: نعم . فقالت: إن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن (٢) .

وقال جمع من السلف: على أدب القرآن (٣) .

يقول أبو عبدالله الرازي في تفسيره: " اعلم أن هذا كالتفسير لما تقدم من قوله:

﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ وتعريف لمن رماه بالجنون بأن ذلك كذب وخطأ ؛ وذلك لأن الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية كانت ظاهرة منه، ومن كان موصوفا بتلك الأخلاق والأفعال لم يجز إضافة الجنون إليه ؛ لأن أخلاق المجانين سيئة، ولما كانت أخلاقه الحميدة كاملة لا جرم وصفها الله بأنها

---

(٢) رواه ابن أبي شيبة (١٤/ ٢١٤) والحاكم (٢/ ٤٩٩) وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي، وأصل الحديث في صحيح مسلم . كتاب صلاة المسافرين (رقم ٧٤٦).

(٣) عزاه أبو حيان في البحر المحيط إلى علي رضي الله عنه (٨/ ٣٠٣) وابن الجوزي في زادالمسير (٨/ ٤٢٨) إلى الحسن، ورواه عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في الدلائل (١/ ٣١٠) عن عطية العوفي .

وانظر: الدر المنثور (١٤/ ٦٢٣) . تفسير ابن كثير (٨/ ٢١٤)

عظيمة " [٤].

وقد جاء تأكيد اتصافه بالخلق العظيم بعدة مؤكدات، وهي:

- حرف (إنَّ) .
- لام الابتداء .
- تقديم المجرور، مع ما يفيده (على) من الاستعلاء المراد به التمكن من الخلق العظيم في نفسه ودعوته .[١] .

إذاً فما هو عليه من الخلق العظيم دليل لكل من تأمل، وبرهان لكل من تدبر أنه رسول رب العالمين ليس بمجنون ولا ساحر ولا كذاب ؛ لأن الخلق الحسن بله العظيم يتنافى مع هذه الأحوال التي زعموها، وقد قال سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يونس/ ٤٣] .

قال السعدي: " ودل قوله: (ومنهم من ينظر إليك ... الآية) أن النظر إلى

حالة النبي صلى الله عليه وسلم وهديه، وأخلاقه وأعماله، وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه وصحة ما جاء به، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة [٢] . أهـ

ويقول تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ

---

(٤) التفسير الكبير (٣٠/ ٧١)

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٩/ ٦٣).

(٢) تفسير السعدي (ص٣٢٢).

ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران / ١٥٩] .

قال الحسن البصري: " هذا خلق محمد صلى الله عليه وسلم بعثه الله به "[١] .

فما هو عليه صلى الله عليه وسلم من اللين والرحمة والعطف والشفقة إنما هو برحمة الله جل وعلا، جبله على ذلك وطبعه عليه، فليس هو خلق يتكلفه، ولا سجية يحاول التطبع بها فيظهر خلافها في أوقات الشدة والمضائق .

لقد كانت أخلاقه صلى الله عليه وسلم وسجاياه من الجمال والكمال بحيث لا يمكن أن تصدر من كاذب مدع للنبوة أو طالب رياسة متهالك عليها، بل ما هو عليه مناسب لما أعده الله تعالى له من حمل الرسالة وتبليغ الدعوة وهداية الخلق، ولما كان العبء الذي حمله صلى الله عليه وسلم ثقيلا والتبعة عظيمة أعده ربه جل وعلا بالكمالات الخلقية التي تناسب رعاية الخلق والصبر على أذاهم وتحمل نقصهم وجهلهم واستعجالهم، بل وفوق ذلك هيأه بالخصال التي تحبب الناس في الدين الذي يدعو إليه وترغبهم منه ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ [آل عمران / ١٥٩].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٢٨).

وهذه الخصال التي أخبر عنها القرآن ذكرتها التوراة في صفته صلى الله عليه وسلم، " فعن عطاء بن يسار: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة . قال: أجل، والله إنه موصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا :لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا "[١] .

ويقول جل وعلا : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة/ ١٢٨].

لقد كان صلى الله عليه وسلم يعز عليه ما يشق عليهم، ويحزنه ما يضرهم، وكان أحرص عليهم من الوالد على ولده، يقول صلى الله عليه وسلم : " إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم ... الحديث"[٢] . وقد قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾

(١) رواه البخاري ، كتاب البيوع، باب كراهية السخب في الأسواق (٤/ ٣٤٢ فتح الباري).

(٢) رواه أبو داوود، كتاب الطهارة، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة (١/ ٣) والنسائي كتاب الطهارة، باب النهي عن الاستطابة بالروث (١/ ٣٨)، وابن ماجة، كتاب الطهارة، باب الاستنجاء بالحجارة (١/ ١١٤)، وحسنه الألباني. انظر: مشكاة المصابيح (١/ ١١٢)، صحيح ابن ماجه (١/ ٥٧).

[الأحزاب/ ٦] قرأ أبي بن كعب وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) [٢].

والآية تسوق هذه الصفات التي اتصف بها صلى الله عليه وسلم والأخلاق التي تحلى بها في سياق الامتنان على الأمة بهذا الرسول الكريم، كما تسوقها في معرض التدليل لنبوته والاحتجاج لرسالته، إذ من كان على هذا النحو لابد وأن يكون رسولا من عند الله غير كاذب ولا طالب رئاسة.

فمن كان شديد الحرص عليكم، عظيم الرحمة بكم، يعز عليه ما يشق عليكم، لا يدأب لنفسه ولا ينقم لها، ولا يجزي بالسيئة السيئة، لين غير فض ولا غليظ القلب فإذا ادعى النبوة فلا بد أن يكون كذلك لأن هذه الصفات لا تناسب الكذابين ولا المدعين، وإنما تناسب الصادقين، ولو حاول الكاذب أن يتطبع بغير أخلاقه ويظهر ما ليس فيه فإنه لا بد وأن يظهر على حقيقته مع طول الأيام وتعاقب الأحوال والمواقف كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد / ٣٠] .

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء / ٢١٠- ٢١٢].

فما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وحي من عند الله لم تتنزل به

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٧٧)، البحر المحيط (٧/ ٢٠٨)، تفسير القرطبي (١٤/ ١٢٣)، تفسير ابن كثير (٦/ ٣٨٢)

الشياطين، فهم لا يريدونه، لأنه مناف لمقصودهم وأحوالهم وأغراضهم " فليس في الأرض أمر أعظم منافاة ومناقضة لمراد الشياطين مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم "[١] . ولو أرادوا لما استطاعوا ﴿وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ٢١١ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ٢١٢﴾ .

ثم أمره تعالى بالتوحيد الخالص، والخلق الرفيع الذي يناسب أحوال الأنبياء عليهم السلام فقال تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ٢١٣ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾ [الشعراء / ٢١٣-٢١٥] .

ثم بين سبحانه صفات الكذابين الذين تتنزل عليهم الشياطين، فهم حزب الشيطان فقال تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٢٢٢ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ٢٢٣﴾ [الشعراء / ٢٢١-٢٢٣] .

فالشياطين تتنزل على من يحصل مقصودها بنزولها عليه، وهو الأفاك الأثيم، وهما صفتا مبالغة من الأفك وهو: الكذب، والإثم وهو: الفجور[٢]، وقد علم كل أحد من الموافق والمخالف أن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان من أبر الناس وأصدقهم، وما زال قومه يعرفونه بالصادق الأمين لم تجرب عليه كذبه، ولم يعرف عنه فجور، قبل النبوة وبعدها .

---

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٣٤٩).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ١٨٣).

فالفرق بين النبي الذي يأتيه الملك، والكاذب الذي يتنزل عليه الشيطان يعرف من صفات كل منهما وأخلاقه وسجاياه .

ولهذا لما كانت خديجة رضي الله عنها تعلم صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وكريم خصاله، ورفيع خلقه ، وحسن سجاياه عرفت أن ما جاءه في حراء حق، وأنه ليس بكاذب ولا تنزلت عليه الشياطين ، لأن ما كان عليه من الصفات والأخلاق يناسب الأحوال الرحمانية لا التخبطات الشيطانية ، ولذا قالت له :

" كلا والله لا يخزينك الله " ثم استدلت على ما ذهبت إليه بقولها : " إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق" [(١)] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " فذكرت خديجة ما كان مجبولا عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والأعمال، وهو الصدق المستلزم للعدل، والإحسان إلى الخلق، ومن جمع فيه الصدق والعدل والإحسان لم يكن ممن يخزيه الله، وصلة الرحم وقرى الضيف وحمل الكل وإعطاء المعدوم والإعانة على نوائب الحق هي من أعظم أنواع البر والإحسان، وقد علم من سنة الله أن من جبله الله على الأخلاق المحمودة ونزهه عن الأخلاق المذمومة فإنه لا يخزيه "[(٢)] .

وإذا كانت هذه أخلاقه صلى الله عليه وسلم التي يعلمها عنه أقرب

---

(١) سبق تخريجه (ص ٢٨).

(٢) شرح الأصفهانية (ص٩٣).

الناس إليه قبل النبوة، فإن النبوة أضافت إليها، ورسختها، ومكنتها ، ووظفتها ، وقد كان كل من صحبه صلى الله عليه وسلم أو خالطه أو عامله أو رآه يدرك ذلك بجلاء ويلمسه بوضوح، يقول عبد الله بن سلام رضي الله عنه لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة مهاجرا :" فلما استبنت وجه الرسول صلى الله عليه وسلم عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب "[(١)] .

(١) رواه الإمام أحمد (٥/ ٤٥١)، والترمذي، كتاب صفة القيامة، باب حديث افشوا السلام بينكم رقم (٢٤٨٥) وقال حديث صحيح، والدارمي (١/ ٣٤٠)، وابن ماجة، كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء في قيام الليل رقم (١٣٣٤)، والحاكم (٣/ ١٣) وصححه ووافقه الذهبي .
وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ١٠٩).

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين وبعد /

ففي ختام هذا البحث أشير إلى أبرز ما توصلت إليه من نتائج :

- جاء القرآن الكريم ببيان أصول الدين كإثبات وحدانية الله تعالى وأسمائه وصفاته، وتقرير البعث والجزاء والحساب والنبوات وغيرها.
- سلك القرآن الكريم في إثبات هذه الأصول والاستدلال عليها الحجج القطعية والبراهين اليقينية والدلائل العقلية، وقد امتازت دلائل القرآن :

- بأنها قاطعة ويقينية، لا يسع أحداً ردها ولا التشكيك فيها .
- أنها واضحة وسهلة، يفهمها كل أحد، ويدركها كل عاقل .
- من لم يعتن بتلقي هذه الأصول والاستدلال عليها من القرآن، وسلك طرقاً أخرى، فهو لم يقدر القرآن حق قدره، ولم يعرف منزلته، ولعل هذا ما جعل بعض من تكلموا في إعجاز القرآن يرون أن إعجازه في ألفاظه لا معانيه .
- تنوع الأدلة والآيات التي ساقها القرآن لتقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وتصديق رسالته، والمعجزات أحد هذه الأدلة .

- أن في القرآن جواباً على كثير من الشبه التي ذكرها منكرو النبوة، بل إن أجوبة القرآن هي أسد الأجوبة وأقطعها للنزاع .

- أن هذه المباحث هي أولى ما تصرف فيها الأوقات، وتنفق فيها الأعمار، فهي المقصد الأعظم من إنزال الكتاب وبعث الرسول، وهي ينبوع كل خير وجماع كل هدى .

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد و آله وصحبه أجمعين .

فهرس المراجع

- إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، أبو الحسين الهاروني، ت: عبدالله عوض العجمي رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم .
- إظهار الحق، رحمت الله الهندي، ت: محمد أحمد ملكاوي، دار الإفتاء، الرياض١٤١٠ هـ .
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى١٤٠٨هـ .
- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ت : عادل عبدالموجود، وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤١٣ هـ .
- تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي، محمد عبدالرحمن
- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، مكتبة العلوم والحكم، بيروت ط الأولى، ١٤٠٨ هـ .
- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، أبو جعفر بن جرير الطبري، ت: محمود شاكر، راجعه : أحمد محمد شاكر .
- تفسير القرآن، عبدالرزاق بن همام الصنعاني، ت : مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض ط الأولى ١٤١٠ هـ .
- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير، ت : عبدالعزيز غنيم، محمد عاشور، محمد البنا، دار الشعب، القاهرة .

- التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت الرياض ط الأولى ١٤١١ هـ .
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن سعدي.
- جامع الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، دار السلام، ط الثانية، ١٤٢١ هـ .
- الجامع الصحيح، الإمام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، دار السلام، الرياض، ط الثانية، ١٤٢١ هـ .
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، ت: علي حسن ناصر وآخرون دار العاصمة، الرياض، ط الأولى ١٤١٤ هـ .
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، ت : عبدالله التركي، وآخرون، مركز هجر للبحوث، القاهرة، ط الأولى، ١٤٢٤ هـ .
- درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، ت: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام، ط الأولى ١٤٠٣هـ .
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين البيهقي، توثيق وتخريج : عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤٠٥هـ.
- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، محمود الآلوسي، دار

الفكر، بيروت،١٤١٤ هـ .

- زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط الثالثة، ١٤٢٤ هـ .
- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، دار السلام، الرياض، ط الثانية، ١٤٢١ هـ .
- السيرة النبوية لابن هشام، ت : مصطفى السقا وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الأولى ١٤١٥ هـ .
- شرح العقيدة الأصفهانية، ابن تيمية، تقديم : حسنين مخلوف، دار الكتب الإسلامية، مصر .
- شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، ت: عبدالله التركي، شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط الثانية، ١٤١٣ هـ .
- الصارم المسلول على شاتم الرسول صلى الله عليه وسلم، شيخ الإسلام ابن تيمية، ت : محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨ هـ .
- صحيح الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، دار السلام، الرياض، ط الثانية ١٤٢١ هـ .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣ هـ .

- القواعد الحسان لتفسير القرآن، عبدالرحمن بن سعدي مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٠هـ .
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود الزمخشري، ت: عادل عبدالموجود، علي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط الأولى، ١٤١٨ هـ .
- لسان العرب، جمال الدين بن منظور، دار صادر، بيروت.
- المباركفوري، دار الفكر، ط الثالثة، ١٣٩٩ هـ .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط الثالثة، ١٤٠٣هـ .
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب : عبدالرحمن بن قاسم، إدارة المساحة العسكرية، القاهرة ١٤٠٤ هـ .
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبدالحق بن عطية الأندلسي، ت : عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤١٣ هـ .
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، ت: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٢هـ .
- المستدرك على الصحيحين، أبو عبدالله الحاكم، إشراف: يوسف المرعشلي، دار المعرفة، بيروت.
- المسند للإمام أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي، ط الأولى ١٤١٣ هـ .

- معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، ت: محمد النمر، وآخرون، دار طيبة، الرياض، ط الأولى ١٤١٤ هـ .
- معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج، ت: عبد الجليل شلبي، دار الوليد، جدة ط الأولى، ١٤١٤ هـ .
- النبوات، ابن تيمية، ت: عبدالعزيز الطويان، أضواء السلف، الرياض ط الأولى ١٤٢٠ هـ .
- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ابن القيم، دار الريان .
- الوفاء بأحوال المصطفى، ابن الجوزي .